

صائمون.. والله اعلم

أحمد بهجت



دار الشروق

صائمون..والله اعلم

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع حواد حسيبي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨
برقيا: شروق - تليكس: SHROK UN 93091
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٢
برقيا: الشروق - تليكس: SHOROK 20175 LB

أحمد بهجت

صائمون.. والله أعلم

دار الشروق

الهدوء

يشتهر المصريون بالسخرية ، والسخرية تنتمي بالقرابة
إلى الغضب .. ! هي غضب لا يريد أن يرفع صوته
بالمراة . غضب يريد أن يحتفظ لنفسه بالصفاء ..

إلى روح

الكاتب المصرى الساخر

إبراهيم عبد القادر المازنى

مودة لفته الجميل وتقديراً لشهادته على عصره .

محمد مجتهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

● الصوفي

في بداية طريقى إلى الله ...

أخطأت في أربعة أشياء ، توهمت أنى أذكره
وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما سرت قليلاً في الطريق ،
رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته تقدمت
معرفتى ، ومحبهه أقدم من محبتى ، ورأيته قد طلبنى
أولاً قبل أن أطلبه ..

ذكرنى الله قبل أن أذكره : حين صنع آدم بيديه وأمرنى أن أستقر
ذرة في كيانه انتظاراً ليوم الخروج .

وعرفنى الله قبل أن أعرفه : خلال رحلتى الطويلة من ظهر آدم إلى
ظهور أبنائه إلى سيقان النبات إلى حشائش الأرض إلى أجنحة الفراش
الملون إلى ثمار الأشجار إلى رحم الأم إلى ظهر الحياة ..

وأحبنى الله قبل أن أحبه : حين هدى أبى فآمن بنوح وركب
سفينته . وإنى لأذكر هذا الخوف الذى شملنى وأنا جزء من نسيج فى ظهر
أبى أثناء الطوفان ..

كان أبي القديم حطابًا فقيرًا أعمى قد آمن بنوح ، كان أعظم من يقطع الأشجار العظيمة ، رغم كونه لا يرى ، كان يتحسس جذع الشجرة ويمسك فأسه ويهوى بها في المكان الذي ينبغي أن تهوى فيه الفأس . وقبل إيمانه بنوح ، كان أبي موضع احترام الناس وتقديرهم وعطفهم ، لشدة بأسه وبؤسه ، فلما آمن بنوح احتقره من كان يحترمه ، وسخر منه من كان يهابه ، وغرس نوح الأشجار أربعين سنة ، وقطعها أبي في سنوات ، وانتهت مهمة أبي ، وبدأت مهمة نوح في بناء السفينة . وركب أبي السفينة مع من ركب من المؤمنين ، ولم يكن أبي يرى شيئًا ، وكنت ذرة عمياء في ظهره أنا الآخر ، أطفأ الله بصره وأضاء بصيرته فأمن وركب السفينة .

وعشت الطوفان مع أبي . لم أر مثله جبال الموج وهي ترتفع وتهد . لم أر مثله بكاء السماء المرير ، أو جنون ينابيع الأرض . كنت أسمع أصواتًا فحسب . في البداية سمعت آية تقول : **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر** .. كانت جملة الآيات مثيرة .. فهي تستخدم الفعل الماضي رغم أنها تتحدث عن أمر لم يقع بعد ، وإنما فرض يقين وقوعه استخدام الماضي .. بعد الآية بدأ الطوفان .. سمعت صوت المياه وهي تغرق كل عين تطرف على الأرض ، وتغرق معها صرخات الكبرياء الآثم ، سمعت صوت ضلالة المؤمنين وهي تتلجلج في الخلوq ويسجنها الهول ، ثم صوت ارتطام المياه بالمياه .. جبال المياه بجبال المياه ..

وسمعتي الخوف في ظهر أبي فرحت أرتعش ..

«وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين» .

وهبطت من السفينة وأنا لم أزل عضلة ترتعش في ظهر أبي . وظللت
أرتعش أياماً بعد النجاة من فرط الهول . لم أكف عن رعشتي إلا حين
لفحتني سخونة الشمس فأدركت أنني خرجت من السفينة ونجوت .. ظل
الدوار أياماً بعد الطوفان في رأس الذرات التي كنت منها . كيف أقول
أنني أحببت الله قبل أن يحبني ، وهو الذي أحبنى من قبل الطوفان ،
ولولا حبه لي لهلكت مع الهالكين ، ولو أنني كنت إبناً لأحد الأثرياء
المبصرين الذين لم يؤمنوا بنوح ، أين كنت أبحث عن نفسى اليوم ، في
قاع محيط بارد ، وسط صخور متحجرة كانت في الأصل عيوننا يقال
إنها تبصر وهى لا ترى .. هيه .. أين كنت أبحث عن نفسى اليوم ؟

عرفت أيضاً أن الله طلبني قبل أن أطلبه : طلبني حين سار إبراهيم
بقدميه الكريمين في الخلاء آلاف الساعات حتى تشققت أصابع القدمين
وسال منها الدم كى يبني لي بيتاً أتوجه إليه في الصلاة ، ولو أن إبراهيم
لم يحمل على ظهره النبيل حجارة الكعبة ليني الكعبة ، فأين كنت أوجه
وجهي اليوم حين أريد الصلاة ؟

وهكذا غلظت في ابتدائي في أربعة أشياء ، حين توهمت أنى أذكره
وأعرفه وأحبه وأطلبه - سبحانه - وأصابتنى الدهشة حين أيقنت أن
ذكره ومعرفته وحبه وطلبه سبق ذكرى ومعرفتي وحبي وطلبي ، وحين
عرفت ذلك كله أصابني ما يصيب إنساناً يتصور أنه يجب ، أنه له فضل
الحب ، فإذا هو يكتشف أن هناك من سبقه بالفضل وأحبه ابتداء
وأوجده ابتداء وخلقه ابتداء من العدم . وأخرسنى العجز عن شكر الله ،
وأياستنى النعمة من الثناء عليه ، عجزت عن شكره والثناء عليه . اردت
أن أقبل توهج النجوم نجمة نجمة ، وأربت على جبال القمر جبلاً
جبلاً ، وأغسل الشمس بدموعي ، دمعة دمعة ، وأحتضن تسيح الحجر

كلها في قلبي ، محاولاً أن أقبل أثرًا ليد الجلال التي مرت عليها بالصنع ..
حاولت هذا كله ولم أعرف ..

حاولت أن أجد كلمات تعبر عن شكر الله أو الثناء عليه فلم أجد .
ولولا دعوة إبراهيم وإسماعيل التي تجسدت في سيد أبناء آدم ، محمد بن
عبد الله - الذي صلى عليه الله وصلت عليه الملائكة ويصلى عليه
المؤمنون - لولاه ما عرفت كيف أثني على الله أو أشكره ..

قال خاتم الأنبياء والمرسلين وهو يثني على ربه : ربنا لا نحصى ثناء
عليك ، أنت سبحانك كما أثنت على نفسك .

وقال وهو يشكر ربه : ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك
وعظيم سلطانك .

ما هو الحمد الذي ينبغى لجلال وجه الله ، ويليق بعظيم
سلطانه ؟ .. هذا غيب لا نعرفه نحن ولا تدريه الملائكة .. حتى الملائكة
تجهل هذا هي الأخرى ، دعا أحد المؤمنين بهذه الدعوة فحيرت الملكين
ولم يعرفا كيف يكتبان قدر ثوابها له ، فسألا الله - تعالى - ربنا إن عبدًا
من عبادك قال مقالة لا ندري كيف نكتب ثوابها ، قال الله - وهو أعلم
بما قال عبده - ماذا قال عبدى .. قالوا حمدك حمدًا ينبغى لجلال
وجهك ويليق بعظيم سلطانك . قال - عز وجل - اكتبها كما قالها
عبدى وأنا أجزيه بها يوم القيامة ..

رغم هذا كله ...

ارتكبت أنا العبد الترابي ما ارتكبت . كل شيء .. فعلت كل
شيء .. ابتداء من تقليد إبليس في كبرياته التي صورت له أن النار خير
من الطين ، وانتهاء بقابيل ، الذي مد يده إلى فك حمار وشج به رأس
شقيقه فقتله ، ولم يعرف ماذا يفعل بجسده الميت .. كل شيء .. فعلت

كل شيء .. كنت أستعين بال مخلوق وأنا أعرف أن استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون .. كنت أجرى نحو رزق الدنيا ، رغم أن رب العرش ضمنه بقوله في الأزل : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » .. وكنت أترك السعى نحو رزق الآخرة رغم أنه هو الوحيد الذى لم يضمنه الله إلا بعمل شاق « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » ..

انتهى الأمر وعرفت ما كنت أجهل ..

وبدأت بقطع العلائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق ، استوحشت من الناس ، وملأتى الأنس وحده برب الناس ..

وصنعت من دموى طوفاناً حاولت أن أغرق فيه السيئات التى كسبتها ، معتقداً أنها الفرح .. ونحت من عظامى مركباً صغيراً وسط الطوفان واقتحمت به مقام الخوف ..

ولم أزل فى هذا المقام ..

لم أزل أرتعش ..

● الممثل

ذهبت البركة تماماً من هذه الحياة ، وكف
الخلق عن الركوع والسجود لله ، وانسرت الناس
فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وصار الواحد منهم
يقدم بطنه على تقواه ، وانفسدت الضمائر والمجاري
ومواسير المياه ، وقالت مقصوفة الرقبة إنها تهواه ،
وتريد أن أزوجها إياه .. ولذلك جلست أنا شيخ
مسجد المقلاة ، وكتبت هذه الأوراق لوجه الله ..

صباح الخير يا شيخ محمد .. صباح الخير يا شيخ على ..

صرخ المخرج من مكانه البعيد .. «توقف» ..

توقفت .. توقف العرض .. وقال المخرج أريد أن يبدأ الضحك من
اللحظة الأولى للمسرحية ..

التفت إليّ يسأل :

- أين ذهبت روحك المرحمة .. ؟ سيدى أنت أستاذ من أساتذة
الضحك في مصر .. لماذا لا أشعر بالمرح .. أريد أن أضحك ..

لم أقل له إننى أريد أن أبكى ولهذا لا أستطيع أن أضحكه .. لم أقل له إننى أحس رغبة طبيعية وبسيطة فى الانكفاء على إفريز أحد الكبارى ، والبكاء بعمق حتى يفيض النهر ويعود إلى المياه لونها القديم الأحمر ..

رحت أستمع لملاحظات المخرج وذهنى مشتب ..

عاد يقول موجهاً حديثه إلى :

أريد أن أموت من الضحك ..

ولماذا لا تموت من الغم .. لماذا تريد أن تضحك .. أنت تتجذع الناس حين تضحك وتضحكهم .. لم أقل له شيئاً من هذا كله واكتفيت بالابتسام الشاحب ..

سألنى : هل أنت صائم .. ؟ هل تحب أن تفطر .. ؟ هل تضع المسرحية بسبب سيجارة .. ؟!

لم أقل له إنه مخطيء ، اكتفيت بهز رأسى وقلت له متأسف .. كان ذهنى غائباً . رحى أترقص على المسرح وأهز وسطى فضحك المخرج .. كنت أحس أنى فارغ تماماً من الداخل .. مجوف قد تحجرت روحى وفقدت شعاعها الخلاق ..

ليس هذا الإحساس جديداً على ..

منذ فترة أشعر كلما اعتليت خشبة المسرح أنى أعتلى خشبة باردة ، أحس أنا نفسى أنى خلو من النبض الذى يميز الأحياء .. كف قلب المسرح عن النبض ، وكف قلبى كممثل أنا الآخر عن الخفقان .. تتنفس الأرض رداً على تنفس القمر والشمس ، ولو مات القمر وماتت الشمس فن الطبيعى أن تموت الأرض .. ليس فى يدى غير المظاهر المسرحية الصناعية الزائفة .. جردتنى الحياة من حماسى القديمة ، انطفأ

داخلي شيء .. ربما كان وهج الرغبة في الفعل والتأثير .. وربما كان
الحماس .. وربما كان الأمل ..

قال ستانسلافسكى : خير للإنسان أن يعمل في رصف الشوارع
بالزلط ، من أن يستمر في أعماله المسرحية ، وروحه مكبلة بهذه
القيود .. غير أنني أستمر في العمل المسرحي لأن أحدًا لا يرصف
الشوارع بالزلط ..

انتهت البروفات وخرجت مسرعًا إلى التلفزيون .

تذكرت أحلامي وأنا طالب بمعهد الفنون المسرحية ..

كنت أحلم وأنا طالب بمعهد الفنون أني أعيد تشكيل البناء الداخلي
للروح ، كنت أحلم بعمار جديد للروح ، وآمنت أن الفن هو رسول هذا
التغيير ، كنت مؤمنًا بذلك إلى الحد الذي لم أكن مستعدًا فيه
للمناقشة .. كنت متعصبًا لدرجة الجنون مثل عاشق غر ..

اعتقدت أن الفن هو المسئول عن تغيير مشاعر الناس .. آمنت أن
صدمة المسرح هي المسئولة عن تطهير النفوس ، وتفجير هدوئها ، وإثارة
الأسئلة في طريقها ، ودفعها إلى القلق ..

وحين كنت أقف وأقول على لسان هاملت :

– أى شقيق .. أنا أحب أوفيليا أكثر من أربعين ألف شقيق من
دمها ..

كنت أحس ساعتها أنني أرسم مجرى جديدًا لعاطفة بشرية ينبغي أن
تولد ..

ثم تخرجت من المعهد ودلقت إلى الحياة ..

صائمًا كنت وأفطرت على بصلة ..

فوجئت أن قيم الفن العليا وأحلام التغيير ليست هي التي تحدد النجاح ، فوجئت أن ارتعاش العبقرية شيء .. وكسب رضا الناس وأكل الخبز شيء آخر ، وربما استطاع أكثر الممثلين ضحالة أن يجمع حوله إعجاب أكبر عدد من القلوب .. وتصورت أنني أستطيع أن أفعل شيئاً لإعادة الذوق المصرى إلى أصوله الطيبة التي كان عليها ، ثم اكتشفت أنى لكى أعيش ينبغى أن أستمرو فى إفساد الذوق والشقبة على المسرح ..

مثل أنا .. المفروض أنى لا أملك شخصية واحدة .. أو فلنقل إننى أملك ألف شخصية وشخصية .. أصير ملكا طاغية لا يرى فى الحياة غير رأيه .. أو أصير شحاذاً تكمن موهبته فى إثارة الشفقة ، أو أصير شاباً يعتقد أنه يستطيع إحضار القمر لمن يجب ، أو أتحوّل إلى عجوز يتياً لدخول قبره .. الحب والكراهية كانا عرشين لى ، الكبرياء والضعة كانا ردائين لى ، السمو والهبوط كانا مجالين لى .. كل شيء أستطيع أن أكونه لأننى ممثل .. كل شيء طوع إرادتى وملاحمى ونظرة عينى وتعبير جسدى .. ولكن هذه المواهب كلها تصير عبئاً ثقيلاً إذا كنت تلعب بها لمجرد اللعب .. يفقد الدور معناه لو كان بلا مضمون ، وتفقد الحياة معناها لو كانت بلا غرض ، ويفقد التمثيل ادعاءه المتقن لو وظفناه لإفساد الذوق فقط .. وأنا لا أعرف الآن من أكون .. ؟

لم أعد أعرف من أنا .. ؟ .. ولماذا أفعل .. ؟

ويخيل إلىّ أحياناً أن هناك مؤامرة على المسرح .. وأحياناً أنى هذا التصور وأقول إننى جنتت .. وأحياناً أعتقد أن هناك قوة ظلام مجهولة لا تريد أن يولد هذا النور ، وأحياناً أشك أصلاً فى وجود النور ..

مثل أنا ، والمفروض أن يلعب الممثل دور غيره بغير أن يفقد ذاته أو يفقد غيره ذاته .. غير أنى أفاجأ دائماً أنى أقل الناس تمثيلاً فى هذا

البلد .. تحول كل الناس إلى ممثلين فجأة .. كل إنسان باستثناء قلة قليلة صابرة ..

صارت الأفنعة أكثر من الملامح الحقيقية ، وشح الصدق لدرجة مذهلة ، ولم أعد أعرف كيف أمثل دور الصدق أو أين أبحث عنه أو كيف أحاكيه وهو غائب كل هذه الغيبة ..

دخلت باب التلفزيون وابتسمت للحارس .. تهلل وجهه وهمس :
- أهلاً يا هنيكة ..

هذا اسمى الذى اشتهرت به .. مثلت دور رجل يصفق لكل شيء ويترقص لكل شيء ويتشقلب لكل شيء ، فانتشرت شهرتى .. وقبلها لعبت مئات الأدوار الأصيلة العظيمة فلم يلتفت إلى أحد .. أياكون ذلك هو السر فى أننى مثلت دوراً هو دور كل إنسان فى هذا العصر .. لا أعرف ولا أريد أن أعرف ..

صعدت إلى المخرج ..

كنت الممثل الوحيد الذى تأخر ..

اعتذرت فتقبل اعتذارى وهو يضحك .. لا يرانى أحد إلا وترسم على شفثيه ابتسامة واسعة هى أقرب إلى البلاهة ..

أدوب شوقاً إلى أداء دور جاد ، ولكن لقمة الخبز تأبى أن نجىء إلا من الهراء ..

بدأ المخرج يشرح دورى فى التمثيلية ..

قال إن هناك رجل يجب زوجته ويجب بنت عمته ويجب جارته .. يجب ثلاثة فى وقت واحد .. والثلاثة يحبونه فى وقت واحد .. هذا الرجل عضه كلب وهو طفل ، وأسعفوه بنصف الحقنة ، فهو مريض

بالكلب ، وليس مريضاً بالكلب .. وهو أحياناً يهوهو وأحياناً
لا يهوهو .. وسيكون دورى رائعاً لأننى عندما أحس بالحب أبدأ
الهوهوة ...

قال لى المخرج :

- نريد أن تفرقع هذه التمثيلية .. إنها مسلسلة سوف تستمر أياماً ،
ونريدك فى كل مرة أن تهوهو بشكل يتفق مع دورك ...

كلب أنا يا سيدى حقاً .. !!

معك حق ..

أنا أريد أن أهوهو دون حاجة لهذه التمثيلية وبغير إلحاح منك
أو تفهيم لدورى ..

أحس أننى فى حاجة إلى الهوهوة حقاً ..

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يروعه الفرق بين الأشياء كما هى
والأشياء كما ينبغى أن تكون .. هذا هو الإنسان .. فإذا كف الإنسان عن
ملاحظة هذا الفرق .. إذا كف عن الحلم .. إذا تداعى منه الحلم وترك
الواقع يغرس أعلامه فى صحراء الروح .. فقد تحول الإنسان إلى مخلوق
لطيف يهوهو بضمه ويهز ذيله ويترقص لسيدة ..

رحت أقرأ دورى فى التمثيلية .. كان تافهاً لدرجة مذهلة .. وفكرت
أن أعتذر عنه ، ولكنى حسبت بذهنى ما سوف أقبضه فيه فترجعت ..
مبلغ لا بأس به .. نستطيع أن نسد به بعض ما علينا من
التزامات .. ولو افترضت جدلاً أننى اعتذرت فكيف أبرر اعتذارى
للمؤلف وهو كاتب كبير له أصدقاؤه النقاد .. وكيف أبرر اعتذارى
للمخرج وهو مخرج لا ينقطع الشغل من يديه .. وكيف أبرر اعتذارى

لزوجتي .. وكيف أبرر اعتذاري للشغالة التي تعمل عندنا في البيت .. إن هذه الشغالة هي الناقد الأول لي ..

كلما زادت حركتي في هز الوسط أمام كاميرات التلفزيون قالت لي الشغالة :

- عظيم جدا ..

فإذا مثلت حقاً تجمهم وجهها وقالت :

- سيدى ثقل دمه هذه الأيام ولم يعد يعرف كيف يمثل ..

وليس هذا رأيها وحدها .. هذا اتجاه سائد وأسلوب عام ومدرسة بأكملها تتنفس وتعيش بيننا وتبرز وتطل برأسها وتفرض علينا ذوقها وتصيغ ذوق الأطفال الذين لم يولدوا بعد ..

انتهيت من قراءة الدور فسألنى الكاتب :

- ما رأيك ؟

قلت : عظيم .. تعرف رأيي فيما تكتب ..

قال : سيفرقع الدور فرقة شديدة ..

قلت : إنشاء الله ..

قال المخرج : سيكون أجمل من دور هنبكه .

قلت : لعل وعسى ..

قال الكاتب : أبداً .. أنا أعرف ذوق الناس وأعرف ماذا يريدون .. إننى أترك سيارتي كل يوم وأركب الأوتوبيس عشر دقائق .. ألتحم فيها بالشعب العامل وأعرف ماذا يريد وأعود للسيارة ..

قلت : - ما أعظم توضيحتك ..

قال : حياتي كلها سلسلة من التضحيات .. تعرف صاحبة الجلالة ملكة الفن ، طلباتها كثيرة وسهلة ونحن مضطرون إلى إرضائها على حساب صحتنا وراحتنا وهنائنا ..

قلت : متعك الله بالصحة ..

نزلت من التليفزيون ..

أعرف أن هذه التمثيلية ستزيد من كمية العبط العام الموجود في الهواء والناشئ من التمثيليات الأخرى .. غير أنني مضطر لتمثيلها .. مجبر أخاك لا بطل ..

بدأت أندمج في الدور ..

ذهبت إلى سيارتي وركبتها فجاء المنادى .. قلت أرى ما يكون من تأثير التمثيلية عليه .. مد إليّ يده يطلب القرش فهو هوت له ..

مثل أى كلب بوليسى مدرب هو هوت ..

وانفجر الرجل ضاحكاً .. واطمأنت ..

ستفرقع التمثيلية .. !!

● الزاهد

أنا أسوأ إنسان في الكرة الأرضية .. أعترف
بذلك .. في بداية بدايتي كنت أقول :
- يا رب .. أى ذنب فعلته لأستحق هذا
العذاب ...

كنت أتصور أن ذنوبى لا تستحق العذاب ..
كنت سيّداً من سادة الكبرياء .. ودون أن أدري ،
كنت أهوى بكلمتى لنفس الموضع الذى هوى إليه
إبليس حين رأى أنه خير من آدم ..

وليس فى الوجود كله أسوأ من رذيلة الكبرياء غير الشرك .. وربما كان
الكبرياء قريباً من الشرك ، لأنك حين ترى نفسك أعظم الناس ، تنحدر
إلى عبادة النفس دون أن تدري .. ولقد عدلت اليوم عن كبريائى تماماً ..
قال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو أسوأ منه فهو
متكبر .. قيل فتى يكون متواضعاً .. قال إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ..
إذا رأى نفسه أسوأ الناس على الأرض .. وأنا أسوأ الناس على الأرض

حقيقة لا مجازا .. لا أريد شيئاً من إنسان ، ولست مديناً لمخلوق ، ولست خائفاً من أحد ، ولى أسبابي الخاصة حين أرغب فى شىء ، للناس أسبابهم ، ولنا نحن الزاهدين سبب واحد ، هو : الإيمان والتقوى .. قال - سبحانه وتعالى : «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» .

أنا أصدق رب العالمين ، وثبتت الحياة حولى أن الخير يجرى بين أيدي الناس ، حين يؤمن الناس ، ويشح الخير ، حين تظلم النفوس ، ويعذب الإنسان نفسه بالفقر ، حين يطفىء داخله أنوار الحق ..

وليست شكاة الخلق اليوم من الضيق إلا إثباتاً لظلمة النفوس ، واعتراضاً صريحاً ، بخلو الحياة من القناديل القديمة التى كان زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ..

والكبرياء أنواع .. والغرور أنواع .. وإنك لتجد الرجل يخلو من كل فضل باستثناء الكبرياء ، وتفتش فى ذهنك ، أى أسباب تدعوه للكبرياء والغرور ، تفتش عن فضل علم ، أو فضل دين ، أو فضل تقوى ، فلا تجد إلا النقيض ، وقديماً كان أبو بكر يطوى ستة أيام ، ولا يزيد على ثوب واحد ، ويأخذ بطرف لسانه ويقول : «هذا الذى أوردنى الموارد» .. وكان يقول : «إذا دخل العبد العجب بشىء من زينة الدنيا ، مقتته الله حتى يفارق تلك الزينة» .

وكان عمر بن الخطاب ، الذى قال فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) مخبراً عن ربه - عز وجل - : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

كان عمر بن الخطاب متواضعاً ، إلى الحد الذى كان يخطب فيه وهو خليفة المسلمين ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وقيص فيه أربع رقعات ، دون أن يكون له غيرها ، وكان عمر يغسل ثوبه بيده ..

وكان عثمان بن عفان من تواضعه لا يدع النظر في المصحف كل يوم ،
فإن سئل في ذلك ، قال : « هذا كتاب ربي ، ولا بد للعبد إذا جاءه
كتاب سيده أن ينظر فيه كل يوم ليعمل بما فيه » .

وظل كذلك حتى قتل والمصحف بين يديه ..

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ..
تغير الوقت ، وتغيرت النفوس ، حتى قال قائل :

كان الزهد حالاً ، فصار كاراً .. وكان حرقة في القلب ، فصار خرقة
على البدن .. وكان احتساباً ، فصار اكتساباً .. وكان استتاراً ، فصار
اشتهاراً .. وكان اتباعاً للسلف ، فصار ابتغاءً للعلف .. وكان عمارة
للصدور ، فصار عمارة للغرور .. وكان تقشفاً ، فصار تكلفاً .. وكان
تخلقاً ، فصار تملقاً .. وكان سقمًا ، فصار لقمًا .. وكان قناعة ، فصار
فجاعة .. وكان تجريدًا ، فصار ثريدًا ..

كان عندي قط أريه .. أنا شيخ يبيع العطارة .. جاءني قط ذات يوم
ووقف على باب الدكان ، طردته فذهب ، وعاد في اليوم الثاني فوق قريباً
من مقعدى ، ومددت قدمي لأطرده ، ثم اندلع في نفسى خاطر
سريع .. ألتست أنا والقط عالة على الله .. كم مددنا أيدينا المملوطة
بالذنوب إلى الله ، فشاءت رحمته أن يردها مليئة بالخير ، فكيف يمد
القط نظراته الضارعة إليّ فأطرده .. أعدت قدمي إلى مكانها وجلست
أتأمل القط .. كان قفاً أصفر ، طارت إحدى عينيه في حادث أجهله ..
أجرب الجلد ، بائس النظرة ، منظره يدعو للاحتقار والتشاؤم وجلده
يستقر فوق عظامه ، وقد التصق بطنه من الجوع .. قلت في نفسى :

لو أن الله خلقه أجمل قليلاً مما هو عليه لتستريح العين عند النظر إليه ،
ثم رأيتنى ، دون أن أدري ، أعترض على صنع الخالق ، ماذا قال إبليس

أكثر مما قلت .. لقد تصور أنه أفضل ، أكان شكل إبليس أجمل من آدم ؟ .. أكان أكبر منه مثلاً أو أطول ؟ .. أكانت النار في تصوره أحسن من الطين .. لونها أحسن مثلاً .. وهجها أعلى .. أى شيء كان في نفس إبليس حين رفض السجود لآدم غير الكبرياء .. ولقد علم الله - تعالى - كبرياء إبليس فطرده من رحمته .. ولقد تعلمت أن أتواضع أنا نفسى إلى الحد الذى لا أزدرى فيه إبليس .. أرانى أسوأ منه .. أعرف أنه عدو قديم ، لكننى لا أقول إننى أفضل منه .. لا أريد ، حتى خلال كراهيتى له ، أن أستخدم نفس أسلحة الكبرياء التى ضيعته ..

تركت القط يذهب ويحىء فى الدكان ، وكان الفلفل يزعجه ، ويدفعه إلى العطس ، فكففت عن شراء الفلفل والتعامل به ، ويوماً بعد يوم ، أحسست أننى أشتغل عند هذا القط ، وتأكدت أن الله يرزقنى إكراماً لهذا القط ، فهو على الأقل لم يرتكب نصف عدد الذنوب التى ارتكبتها .

يحكى أبو الحسن بن عتيق ، فى كتابه «بغية الطالب ومنية الراغب» قصة عن فقيه عالم يسمى أبو محمد بن عبد الله .. رآه مؤلف الكتاب يمشى فى يوم شتائى كثير الطين .. فاستقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها يسير .. قال : فرأيتك قد ألصق نفسه بالحائط وترك للكلب طريقاً ووقف ينتظره ليمر ، وحينئذ يمشى هو ، فلما اقترب منه الكلب رأيتك يترك مكانه الذى كان فيه وينزل أسفل منه فى أحوال الشارع ، وترك الكلب يمشى فوق المكان المرتفع .. فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعلى وجهه كآبة ..

قلت له : يا سيدى ، رأيتك الآن تصنع شيئاً استغربته .. كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقي ... ؟

قال لى : بعد أن أفسحت للكلب طريقاً تحتى تفكرت .. قلت
لنفسى : ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه ، بل هو والله أرفع
منى وأولى بالكرامة .. لأنى عصيت الله - تعالى - وأنا كثير الذنوب ،
والكلب لا ذنب له ، فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه ، وأنا
الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عنى ، لأنى رفعت نفسى على من
هو خير منى ..

لو عرفنا أن قائل هذا الكلام كان من علماء عصره وفقهائهم
وزهادهم .. لو عرفنا هذا لأدركنا جزءاً من معنى التواضع الحقيقى ،
ولا يكون الزاهد زاهداً إلا إذا تواضع ، والتواضع عند الخاطئين من
أمثالى حسنة ، وعند الأبرار غرور ، وعند المقربين ذنب كبير .. وكل شىء
فى الدنيا نسبى ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ..

قال الجنيد (رضى الله تعالى عنه): «التواضع عند أهل التوحيد تكبر ..
قيل له : لماذا يا سيدى ... ؟

قال : لأن المتواضع يرى نفسه لكى يتواضع .. وهو يثبت نفسه ثم
يتواضع بها ، أما الموحد الحقيقى فلا يرى نفسه حتى يضعها أو يرفعها ..
المتواضع الحقيقى تذهب نفسه حين يشهد ربه ..

قال ذو النون المصرى : من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة
الله ، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، والتواضع درجات ،
وأشرف التواضع أن لا ينظر الإنسان إلى نفسه دون الله تعالى ..

قال موسى (عليه السلام) لربه :

«رب أرنى أنظر إليك»

قال الحق - عز وجل : لن ترانى . ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا .. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك .

لماذا صعق موسى ؟ .. ومن أى شىء كان يتوب حين أفاق ؟ .. وأى حكمة فيما حدث .. ؟

أهو ذنب ؟ .. هل هناك ذنب فى الموضوع ؟ .. وهل لهذا الذنب علاقة بالتواضع ... ؟

ربما كان هذا صحيحاً .. من الثابت عند العارفين بالله أن من الأدب ترك الطلب ..

ومن الثابت عند العارفين بالله أن من الذنب رؤية النفس .. ولقد رأى موسى نفسه .. ولم يترك الطلب .. هذان شيان مركبان وقع فيهما موسى (عليه السلام) ..

رأى موسى نفسه فطلب رؤية ربه .. وهذا الطلب عند الأبرار شوق جميل ، وحسنة طيبة يثاب عليها المرء .. ولكنه عند المقربين والعارفين بالله ذنب يستوجب التوبة ..

والمفروض ألا يرى موسى غير ربه .. فكيف يطلب أن يرى ما هو موجود وحده .. كيف يطلب رؤية الموجود الحقيقى الواحد ، الذى لا يحتاج إلى الرؤية .. كيف لا يراه من نفسه دون طلب .. ثم كيف يطلب ..

يؤدبه الله بأدب الأنبياء ..

إن خطأ موسى (عليه السلام) أنه رأى نفسه .. ولم يترك الطلب .. ولهذا عاتبه ربه بأن أفهمه أنه لن يراه ، وعاتبه ربه بأن صعقه .. ولهذا تاب (عليه السلام) حين أفاق .. وعلمه الله - تعالى - أن الله -

سبحانه - إذا تجلى على الكائنات خرت ساجدة ودكت وانهارت
ولم تصمد .. وإنما هو شوق القلب وحده دون الطلب .. ثم تأتي من بعد
ذلك درجة أدركها شيخ الزاهدين الجنيد .. حين قال :

يذهب العبد .. يصير شبحًا قائمًا بين يدي القدرة الإلهية ..
ساعتها لا يكون هناك زهد .. يكون الزهد في أى شيء .. في الدنيا ..
هل هناك دنيا ؟ .. هل هناك على التحقيق غير الله ؟ .
هنالك يضع الزهد .. وينتفى .. تضع النفس وتذوب ..
لا يبقى غيره هو - سبحانه - له وحده الكبرياء .. وله وحده
الوجود ..

كل ما عداه شبح ..

كل ما سواه عدم ..

● النشال

خفة اليد والذكاء ..

تعتمد مهنتي على خفة اليد والذكاء .. أنظر إلى
الإنسان نظرة واحدة فأعرفه ، أعرف هل هو غني
أم فقير ، مدير أم غفير ، معه محفظة أم يضع النقود
في جيبه .. أعرف أى جيب يضع فيه نقوده ..

بنظرة واحدة أكتشف هذا كله .. أستطيع أن أنشل محفظة مدير
المباحث لو أنه تجرأ وركب الأوتوبيس أو الترام ، لن يحس بشيء ..
يستحيل أن يحس بشيء .. ليس في مهنتنا شيء نتركه للظروف .. نتدرب
أياماً وشهوراً على خفة اليد .. رحم الله بندق ، كان نشالاً موهوباً بحق ،
كان يعلق جاكته على حبل ، ويعلق فيها عشرة أجراس ، وكان الهواء
الخفيف يحرك الأجراس فتدق ، وكان يطالبنا أن ننشل المحفظة من الجاكتة
بغير أن يرن جرس واحد .. وكان أحدنا إذا أخطأ ورن الجرس رن القلم
على وجهه بأسرع من رنين الجرس .. قضيت في مدرسته سنوات
وسنوات .. حتى إذا تخرجت وانطلقت إلى الحياة كنت أركب الترام

أو الأوتوبسيس مفلساً في جيبي ثلاثة قروش ، فإذا هبطت هبطت بمحفظة تضم ثلاثين جنيهاً .. صحيح أن الدنيا تتغير ، وقديماً كانت هناك المحفظة التي تضم ورقة بمائة جنية .. وكانت هناك محفظة تضم عشر ورقات من فئة المائة جنية ، وكانت الدنيا بخير ، كانت الدنيا مثل طاجن من اللبن وعليه من القشدة أربعة قراريط .. أما اليوم فقد صارت الدنيا مثل طاجن من اللبن المغشوش بالمياه .. ولا قشدة عليه .. ذهبت قشدة الحياة ، وقديماً كان النشال منا يجبّط خطته فيظل عليها شهراً أو شهرين ..

أما اليوم فقد لحق البؤس بالجميع وصار على النشال أن يشتغل يوماً بيوم كأى إنسان شريف وبائس .. ومن النادر اليوم أن تعثر على محفظة تضم أكثر من عشرين جنيهاً أو ثلاثين .. وغالباً تكون محفظة موظف جديد أصابه الفرح بشبابه ووظيفته فاشترى محفظة ، ومعظم الناس اليوم تضع النقود في جيبيها ولا تحمل المحافظ ، وهناك من يوزع نقوده على جيوبه الأربعة .. لم أكن أنوى أن أصوم هذا العام ولكنى صمت .

أفطرت في اليوم الأول وصمت بعد ذلك . وقعت لى حادثة لم تقع لى فى حياتى قط ، وقد اعتبرتها من كرامات شهر رمضان ، وقررت بعدها أن أصوم .. قلت إننى ملك خفة اليد .. أتحدى بخفة يدى أى مخلوق .. لم يكن هناك من له أصابعى الساحرة غير بندق .. وقد توفى بندق .. دهسه ترام كان قد نشل منه لتوه محفظة سمينة .. بعد موته لم يعد فى مصر كلها واحد له أصابعى .. أعظم من أصابع شوبان .. أنا نشال مثقف يقرأ الصحف ، ويعرف أن شوبان آلاى يضرب على البيانو ، وكان مريضاً بالسل أظن أو البلهارسيا .. المهم أن أصابعى مثله ، وربما لو ولدت فى البلد التى ولد فيها لوجدت موهبتى من يرعاها وصرت مثله ، غير أننى ولدت فى مصر ..

كنت أعرف أن رمضان يبدأ يوم الخميس ، وزع علينا الحاج أحمد

ملك الفطير ، إمساكيات ، كان رمضان يبدأ فيها يوم الخميس ، وأنا أثق في الحاج أحمد ، أثق في فطيره وكلمته .. وقالت الصحف إن رمضان يوم الأربعاء .. ولم يكن في جيبى مليم واحد ، هل أصدق إمساكيات الحاج أحمد أو أصدق الصحف .. ؟! يقول الناس على الكلام الفاضى إنه كلام جرايد .. قلت أصدق الحاج أحمد ، وأصوم يوم الخميس ، وكأننى لم أر الهلال كما رأوه في أسوان ، وخرجت يوم الأربعاء وقد عملت حسابى ، ورتبت نفسى على أن رمضان هذا ليس رمضان وإنه يبدأ غداً لا اليوم . وقفزت إلى أوتوبيس مسرع وتوكلت على الله وبدأت أدرس الواقفين لأختار من بينهم ضحيتى ..

راكب طويل كالنخلة .. عريض كالباب .. وجهه كوجه الفحل ، ويداه فى ثقل حجر الطاحونة ، وعلى وجهه طن من البلاة والبلاهة .. حذاؤه جديد والجلباب من الجوخ والصديرى يلمع والمحفظة حامل بعشرين ورقة من فئة الجنيه أو الخمسة جنيهات .. وهو يقف كاللطرانة نصف معوج وقد أمسك بيده عمود الأوتوبيس ويده الأخرى تنام كظفل الجاموسة على صدره .. لو زحزح يده قليلاً لأمكن أن تتسلل أصابعى إلى صدره ، انتظرت أن يزحزح يده فلم يتحرك .. درست الموقف وحسبت المسافة بينى وبينه وباب الأوتوبيس والمسافة بين باب الأوتوبيس والشارع وقدرت أننى لو نشلت المحفظة وظللت أقف معه فى الأوتوبيس فربما اكتشف الأمر ، أعرف بخبرتى أن هذا النوع من الآدميين يمد يده كل دقيقة إلى صدره ويتحسس المحفظة ليطمئن عليها .. إذن لابد من مغادرة مكان الحادث بعد نشل المحفظة مباشرة .. قدرت فى ذهنى هذا كله وحسبت متى أقفز من الأوتوبيس وفى أى اتجاه أجرى وانتظرت أن يرفع يده من فوق صدره فظل اللطران واقفاً كما هو .. محتضناً محفظته كما هى .. لابد من تصرف سريع .. قلت له وأنا أخبطه فى كتفه خبطة قوية :

- أتأخر كده شوية مش عارفين نقف ..

اختل توازن الفحل بعد الخبطة فنزلت يده من فوق صدره لمدة نصف ثانية .. كانت هذه النصف ثانية كافية لكي تتسلل أصابعي المدربة إلى صدره وتنشل المحفظة . وفي الربع الثاني من الثانية كنت على باب الأوتوبيس ، وفي الربع الأخير من الثانية كنت أفقر إلى الشارع . وهنا تلقيت أعظم مفاجأة تلقيتها في حياتي كانت المحفظة في يدي ثم طارت مني فجأة !! ..

اكتشفت أن الراكب يربطها في الصدري بفتلة سميكة تشبه الحبل الذي يربط به الجاموسة ، وجريت بعيداً عن الأوتوبيس على أمل أن تنقطع الدوارة التي تربط المحفظة ، ولكنها لم تنقطع ، ووجدت نفسي أجرى نحو الأوتوبيس بسبب ارتباطي المصيري بصدري الراكب ..

وحاولت أن أشد المحفظة شدة أخيرة قوية ، تنزع الصدري نفسه من صدره أو تقطع الدوارة ، ولكن الدوارة كانت أجمد من الحديد ، ورأيت نفسي أندفع نحو عجل الأوتوبيس وأكاد ألقى نفس المصير الذي لقيه بندق ، وهنا أفلت المحفظة وجريت ..

وقع هذا كله في ربع ثانية .. لم أجد الوقت لأخرج الموسيقى من جيبى وأقطع الدوارة .. وهى دوارة أغلب الظن أنها تحتاج لمنشار لقطعها .. أفلت المحفظة وجريت بعيداً عن الأوتوبيس .

كنت ذاهلاً من الغضب .. أياكون هذا الراكب أذكى مني .. أم أنها كرامة من كرامات الشهر ورسالة تقول لى لا تسرق أثناء الصيام وانتظر بعد المدفع ..

لست أعرف .. !؟

● المدير العام

أنا رجل حاسم ...

الشغل عندي مقدس .. في رمضان وفي غير
رمضان .. لا استثناء عندي لأحد أو لشهر .

لا أعرف المجاملة ولا النفاق ، ولا أفهم الأعدار
ولا أقبل المبررات ، ولا أعطي أحدًا سلفة ،
ولا أفهم معنى أن يكون الموظف صائمًا ومدروخًا
ولا ينجز العمل ..

لماذا يصوم ، لماذا يطلب سلفة .. شيء مدهش هذه الأيام ،
لا يكاد الموظف يشتغل يومين حتى يطلب سلفة . بجر من السلف ، وأمواج
من العلاوات ، كلها تكسرت على صخور إرادتي الصلبة .. وأنا رجل
إرادته صلبة .. أصلب من الحديد .. هل رأيت حديد كوبرى الجيزة ..
شخصيتي أجمد من حديد كوبرى الجيزة ..

لا أكاد أدخل من باب العمل ، حتى يرتعش البواب ، وينهض
الموظفون على حيلهم .. أعرف أن أقدامهم تتحول إلى عيدان من المكرونة

الطرية .. نظراتي تزلزل كيانهم ، فأحس بالرضا عن نفسي .. هذا هو الشغل وإلا فلا .. كل يوم أدخل من باب العمل وأصعد على السلام . لا أركب الاسانسير .. مكتبي في الدور الثاني ، وكل الموظفين يستخدمون الاسانسير ، ولكنني يجب أن أتميز عنهم بشيء .. أنا أصعد السلام .. مقطباً دائماً .. مكشراً دائماً .. سمعت من يقول إنني أشبه تمثال أنوبيس .. وهو أحد آلهة قدماء المصريين ، ولم أعبأ بالتشبيه .. فليقل من يشاء ما يريد قوله ..

كان الذين يوضعون على الخازوق يشتمون السلطان ، وأنا لا أهتم .. المهم أنني أضع الخازوق دائماً لمصلحة العمل العليا .. فوضى .. كان الأمر فوضى قبل أن أتسلمه .. نظمت كل شيء ، ورتبت كل شيء وأغلقت باب السلف نهائياً .. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ، وأغلقتة بالضربة والمفتاح ، وأهلت عليه الأسمت ، وقلت أنا المختص بإعطاء السلف ، وعلى من يريد سلفية أن يتقدم بطلب على ورقة دمغة إلى شخصيا ، واشترت سلة مهملات أنيقة من النحاس وكنت أرمى فيها بطلبات السلف بشكل منتظم .. فوضى .. لست أفهم لماذا يقترض الناس .. هل الإنسان حيوان مقترض .. عندي موظف ينام فوق مكتبه طوال السنة ، فإذا استيقظ كتب بطلب سلفة .. !!

السيد المدير العام .. نظراً لظروف اضطرارية .. لا أقرأ بقية الخطاب .. اضطرارية .. ما هي هذه الظروف الاضطرارية .. النوم فوق المكتب .. النعاس الهنيء .. يقول يا سعادة البيك .. فأقول ألغيت البكوية يا سيدي من زمان .. وأسد عليه باب النفاق وأوشر بالرفض .. القلم الأحمر على مكتبي دائماً .. أعرف أن هذا القلم مكروه في المصلحة كراهية الدم وقد سرقوه أكثر من مرة ..

واشترت دسته أقلام حمراء ، وكنت أخبئها في مكان لا يصل إليه
الجن .. ويظهر القلم دائماً في المكان المناسب ، والوقت المناسب .. يخرج
من جيبى مثل القضاء المستعجل ، ليهدم الأمل ، ويعيد الأمر إلى
نصابه .. فوضى .. كان الأمر فوضى قبل أن أتسلم العمل .. كان المدير
العام السابق رجلاً يفسد الموظفين ويدلهم .. أنا لا أفسد أحداً ولا أدل
أحداً .. أنا رجل حاسم .. قيل لى جاء شهر رمضان ، فقلت مرحباً بشهر
رمضان .. قيل لى نريد تعديل مواعيد العمل لتتفق مع الصيام ، فقلت أنا
لا أشتغل مديراً عاما عند شهر رمضان .. يستمر كل شىء على حاله ،
وأى إهمال فى العمل أو تراخ فيه سيضرب عليه بيد من حديد .. ابتسمت
ابتسامة حديدية وأنهيت النقاش ..

أنا لا أصوم .. لماذا يصوم الناس ..؟؟ ليعرفوا آلام البؤساء .!؟
بسيطة جداً .. قرأت عن آلام البؤساء رواية لفيلكتور هيجو ، وأعرف آلام
البؤساء ، أم يقولون يصوم الناس ليدخلوا الجنة .. عظيم جدا .. أعتقد
أن مديراً عاما لا بد أن يدخل الجنة .. إن مركزى وهيبتى وكرامتى لا تسمح
لى بدخول النار .. يقولون إن الصوم والصلاة ، وكل العبادات تهدف فى
نهاية الأمر إلى أن يكون الإنسان طيباً .. عظيم جدا .. أنا طيب بغير صلاة
وصوم .. طيب ولكننى حاسم .. عندى فى المكتب سجادة صلاة أهداها
إلى موظف متدين يرى لحيته .. تقبلتها منه شاكراً ، وأفهمته أن طلب
السلفة الذى قدمه مرفوض ، وأنه إذا كان يجب أن يسترد هديته فهى تحت
أمره .. قال العفو يا بيبك وخرج ..

يرى لحيته ليضحك على .. لكن أحداً لا يضحك على .. أعرف أننى
مكروه .. يكرهنى الموظفون ، وتكرهنى زوجتى وتكرهنى ملاسى نفسها ،
لكن هذا كله لا يهم .. المهم أن عشيقتى تحببى . ونلعب معاً لعبة الجمل
والجمال فتمتطى ظهرى وأتمشى بها فى بيتها . طبعاً لا يعرف ذلك أحد .

جاءني أحد المديرين في اليوم الثالث من رمضان .. كنت أدخن في مكنتي حين دخل .. قال لي :

« كل سنة وأنت طيب ورمضان كريم »

تجاهلت السخرية في كلامه وقلت :

ادخل مباشرة في الموضوع ، فوقتي ثمين وضيق .

قال : الموظفون ليسوا سعداء بسبب الإجراءات الأخيرة التي اتخذت في المصلحة ، وقد حملوني رسالة لسعادتك يقولون فيها ...

قاطعته قائلاً : الموظفون ليسوا سعداء .. ليست هذه مصلحة السعادة .. تحب أن نغير لافتة المصلحة ونسميها مصلحة السعادة .. أنا لا يهمني أن يسعد الموظفون أو يحسوا بالتعاسة .. أنا هنا مشول عن العمل .. وكل ما يهمني هو العمل .

قال : سعادتك تعرف أن الإنسان لا يشتغل إلا إذا كان سعيداً .. قلت : يشتغل الإنسان لأنه يجب أن يشتغل .. السعادة مسألة لا تدخل في اختصاصي .. ليس عليها نص في اللائحة المصلحة .. احضر لي اللائحة ولتراجعها معي لو تكرمت ..

قال : إتهم بحسون إتهم في سجن .. إن أحاسيسهم قلت : لا تحدثني في الأحاسيس .. أنا لا أهتم إلا بالإنتاج .. الأحاسيس مسألة شخصية ، وليس في اللائحة نص على وجوب اهتمام المدير العام بالأحاسيس .. هل عندك نسخة من اللائحة ..

قال : في العام الماضي صرف المدير العام مكافأة تشجيعية للموظفين الذين اجتهدوا ، وقد رأى سعادته أن كل الموظفين اجتهدوا .. وكانت الفرحة عامة ، وقد دعونا له أن يمد الله في عمره وي طرح البركة في

مه .. وقد زاد الإنتاج بسبب تصرفه ، كما لم يحدث قط في تاريخ
صلحة ..

قلت مقاطعاً : العام الماضي فعل ماضٍ ذهب لحال سبيله ، ونحن
، العام الحالى ، وأنا أشكركم ولا أريد أحداً أن يدعو لى لا بالعم
طويل ولا بالبركة .. وسيزيد الإنتاج هذا العام ، لأنه يجب أن يزيد .

قال : العنصر البشرى مهم ، والبركة فيك يا سعادة البليك ..

قلت : لا تضيع وقتى بالدعوات ، لقد أنفقت في الحوار معى عشر
قائق ، تعطل فيها العمل عشر دقائق ، ونحن هنا لنعمل ...

خرج من مكتبى ووجهه مكفهر .. لا يهمنى حقه .. أعرف أن
جذاب حب الناس مسألة سهلة .. الصعب أن تدفع الناس جميعاً إلى
راهيتك ، وأنا أحب دائماً ركوب الصعب .. شىء واحد هو الذى
همنى فى هذه الدنيا .. العمل .. !! الإنسان موجود فى هذه الدنيا
بشغل ويجهد ويترقى ويصبح مديراً عاماً .. هذا هو أهم شىء .. أما
سألة السعادة والتعاسة ، فهذه نتركها للقصص والأفلام ..
رضى ... !!

يقول لى جاء شهر رمضان وكل سنة وأنت طيب ..

طيب يا أخى ..

أنت تضيع وقتى ووقت المصلحة .. تنسى أننى المدير العام ..

هل تعرف أنت قيمة وقت المدير العام .. ؟

هل تعرف .. ؟

● عامل التراحيل

تونة الجبل ..

الشمس تنحدر نحو الغرب .. والسحاب يشبه
عملاقاً يرقد على ظهره .. والجبل ساكن هداً فيه كل
شيء .. كأن الجبل صائم هو الآخر .

عامل التراحيل يجلس أمام الأحجار التي انتهى
من تقطيعها .. على مقربة منه صرة صغيرة تضم طعام
الإفطار .. رغيف الذرة وحفنة المش وقلّة المياه
المكسورة .

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله
أكبر .

كان فيه يتمم بهذه الكلمات ، بينما استغرق قلبه سكون عظيم ..
لا صوت في المكان غير صوت الرياح وهي تلتف حول الجبل مثل عباءة
من الصوف ، كالتى يرتديها المقاتل الذى أحضره .. ولا رائحة غير رائحة
الحجارة .. هذه الرائحة الغامضة الخاصة التي تذكر بأن الدنيا لا تستحق

إلا التسبيح .. وهو يجلس وحده في مكانه .. انتهى عمل اليوم وعهدوا إليه بالحراسة وتركوه وانصرفوا إلى القرية لتناول طعام الإفطار .. دائماً يتكفونهم هو .. يقولون من الذى سيسهر هذه الليلة إلى جوار الحجارة .. ويلتفتون حولهم وينظر بعضهم إلى بعض ثم يتحدثون في النهاية .. أنت أشجع واحد فينا .. يتصورون أنهم يضحكون عليه بهذه الكلمات ، ويعلم هو في قرارة نفسه أنه أشجع من فيهم ، وإن كانوا هم لا يصدقون ذلك ، وإنما يعهدون إليه بمهمة المبيت طوال الليل في الجبل لعلمهم أنه أضعفهم رأياً وأخضعهم صوتاً .. ولو رفض فلن يكلفوه غداً بعمل ، ولو لم يكلفوه غداً بعمل فلن يكون هناك صيام وإفطار .. سيكون هناك صيام وصيام .. لا بأس بهذا .. حمدًا لله على أى حال .. هذه مهنة عمال الترحيل ، وليس في المهنة من يشكو أو يتبرم ..

سبحان الله .. كيف خلق هذا الجبل وكل الجبال التى تلتف حوله .. الحمد لله .. على رغبة الذرة وحفنة المش وقلة المياه المكسورة .. لا إله إلا الله .. لا رب سواه ولا خالق غيره ولا رازق معه ولا مدبر إياه .. يعرف ذلك معرفته لنفسه ، وربما معرفة أعظم من معرفته لنفسه .. أدرك أن الله حق خلال رحلاته العديدة من أسوان إلى الإسكندرية .. أدرك أنه الخالق لأنه هو نفسه موجود .. وهو لا يذكر أنه كان موجوداً من قبل ، ومادام الآن موجوداً فهناك خالق له .. يعرف أن الله هو الذى يرزق وحده .. يعرف ذلك جيداً ويعرف أن أحداً في الدنيا لا يستطيع أن يعترض رزق الخالق .. ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، هكذا قال الله .. إن عليه هو الرزق .. وهو لا يلقى لحظة على رزقه ، فى المرة الوحيدة التى سبه فيها المقاول ورفع يده وهوى بها على وجهه وهدهد بقطع عيشه .. قال للمقاول يومها :

– ساحلك الله وعفا عنك .. لأنك أقوى تضربني .. والله أقوى منك
ومنى ..

وطرده المقاتل وهو يحدته عن الموت جوعاً ، وكان يقبض سبعة قروش في اليوم ، يأخذ المقاتل منها قرشين ويأخذ رئيس الأنفار قرشاً وتبقى له أربعة قروش ، طرده المقاتل يومها فوجد عملاً بثمانية قروش .. في نفس اليوم .. بقيت له منها خمسة .. وشرب يومها كوباً من الشاي بالسكر وكان السكر كثيراً .. وكان المذاق شيئاً لا يمكن وصفه ..

وكانت هذه الحادثة في حد ذاتها معجزة لأن من يشتغل ويطرد لا يجد عملاً في نفس الساعة .. هذا مستحيل ولكنه حدث وهو يعرف أن كل شيء في الدنيا لا يدبره الإنسان ، إنما يدبره الله .. لا يخطوا بن آدم خطوة إلا إذا كان صاحب الشمس والقمر والنجوم قد أذن بها .. ما الذي يخيفه إذن .. أخيفه الجبل .. أليس الجبل مخلوقاً مثله .. إنما يخاف من يفهم حقا من الخالق لا المخلوق .. أليس لهذا الجبل رب .. ألا يستطيع رب الجبل أن يأمر الحجارة أن تسخر نفسها له .. فيصير الحجر وسادة وتصير ذرات الرمل غطاء .. أى ثعابين .. لا يخاف من الثعابين إلا من ملأ الخوف قلبه أصلاً قبلها .. يعرف كيف يتعامل معها ببساطة .. إذا كان الثعبان قد جاء جائعاً في مهمة سلام بنية سليمة ألقى إليه ببعض كسر الخبز .. وإذا كان الثعبان قد جاء وفي نيته الإيذاء والشر ، فما عليه إلا أن يرفع قدمه العارية وينزل بكعبه المشقق الصلب على رأس الثعبان مرة واحدة .. وينتهي الأمر بعد ذلك .. يمد يده ويمسك قطعة الجبل الميتة ويرميها بعيداً عنه .. يعرف أن الصقور تأكلها وتشكره .. وبذلك يطعم الصقور .. أستغفر الله العظيم .. بل يكون سبباً في إطعام الصقور .. إنما هو والصقور والثعابين عالة على الله الكريم الرحيم ..

سبحان الله والحمد لله والله أكبر .. لم يزل يسبح .

يعرف أن الله أكبر من الأرض والشمس والنجوم والدنيا والآخرة والجنة والنار ، ويعرف أن الله أكبر من كل شيء .. وهو لا يحاول أن يتصور الله في ذهنه .. إنه يبتسم فقط حين يذكر الله .. كيف يتسع عقله هو للخالق .. يمتلىء القلب بالمشاعر ويظل العقل عند حدود الأدب .. الشمس تنحدر أكثر نحو المغيب ..

الأفق كله ألوان تبدأ بالأحمر وتنتهى بالبنفسجى .. لو كان يعرف فقط من أين يأتي هذا اللون الأحمر .. ؟ مشكلة .. من أين يأتي .. ؟ بعد اللون الأصفر الذى تتحول فيه الشمس إلى عمامة من نار .. بعدها يبيض اللون الأحمر .. يقرب موعد إفطاره فينعس .. ويرى في النعاس حلمًا ..

رأى نفسه عند صديقه محمود .. كان محمود سائقًا يشتغل على سيارة نقل .. وكان لا يكف عن الكلام والمزاح والتدخين والسخرية .. كان محمود قويًا مثل سيد حقيقى وكان يرتدى ثياب السادة .. القميص والبنطلون والجاكته .. وكان عنده شيء يشبه الصديرى ولكنه من الصوف ، ولاحظ محمود أن عمال التراحيل يضطهدونه ويكلفونه بالسهر دائمًا إلى جوار الحجارة في الجبل فعزمه على العشاء .. أخذه لبيته وعزمه على العشاء ..

يا سبحان الله .. كانت الدعوة حلمًا هو الذى يذكره الآن ..

حلم يشبه الجنة .. فهم ساعتها حقيقة الجنة ..

كانت هناك حجرتان .. حجرتان لمحمود .. حجرة بها ثلاثة كراسى وسرير .. وحجرة ثانية لم يرها قط .. ولم يعرف أبدًا كيف يتصور محتوياتها .. جلس على الكرسي يومها فأحس إحساسًا غريبًا .. شيء مثير

أن يجلس الإنسان على الكرسي .. شىء بشير الدوار ويبعث على القلق .. ثم يأتي الإحساس بالراحة .. يا لهذا الإحساس .. كأنه ملك .. جاءت الطبلية وعليها الطعام الساخن .. اللحم والمرق والأرز .. وأحضروا إليه ملعقة كأنها من الفضة .. وشرب بها المرق .. وكان يحمد الله في كل مرة ترتفع فيها الملعقة من الطبق إلى فمه ، وكان يتأمل سطح الشوربة كلما غادرتها الملعقة .. ثم وقع ما كان يتوقعه ونقدت الشوربة ، واصطدم سطح الملعقة اللامع بقاع الطبق الصاج ، وأكد الرنين أن المرق قد نفذ .. كان هناك راديو قد التف في غطاء أبيض .. حتى هذا المخلوق له غطاء يقيه البرد .. وجاء دور اللحم فتباطأ في مضغه ولم يعرف أى شكر وحمد يسوقها للخالق .. امتلأت عيناه بدموع ظن صاحبه أنها من أثر المرق الساخن .. وطوال الوقت كان يتأمل السرير .. هذه المرتبة القطنية ، وهذه الملاة البيضاء .. بيضاء وليس فيها ثعبان ولن يأتيها ذئب .. ثم وسادتان عاليتان .. كان يحاول أن يتصور إحساسه لو طلع على الفراش ونام لحظة واحدة .. كان يريد أن يعرف أى شىء يمكن أن يشعر به من يرقد على هذا الفراش .. وفكر عشرات المرات أن يحدث صاحبه محمود بهذه الرغبة ، غير أنه نخجل ، فلم تكن صداقتها تتيح له أن يطلب منه هذا الطلب ، ثم إنه لا يستطيع أن يرد له هذا الجميل لو افترض جدلاً أنه سمح له .. يستطيع أن يرد الطعام بدعوة على طعامه الذى كان محمود يأكل منه ويحبه .. خبز الذرة والمش ..

أما السرير ، فكيف يرد له هذا الجميل .. وغنى الراديو يومها وتحديث ورقص .. وجاءت أكواب الشاي بعد الطعام فصعد الدفء إلى الرأس وملاً الحواس ، وخيل إليه أنه فى الجنة ، ونام فى مقعده قليلاً من فرط إحساسه بالراحة ..

كان نومًا غريبًا يختلف عن أى نوم .. !!

سقطت الشمس تماماً وراء الأفق ..
واستيقظ عامل التراحيل من حلمه .. نهض نحو قلة المياه وشرب ..
- اللهم إننى لك صمت . وعلى نعمتك أفطرت .. فتقبل منا صيامنا
وإفطارنا ..
لم تكن هناك مياه تكفى للشرب والوضوء .. وضع يديه على قطعة
من الحجارة المتربة وتيمم .. وصلى المغرب وجلس يفطر ..
دخلت أول لقمة جافة يبللها ماء المش فى حلقه .. واستطاع بمجهود
مضن أن يأكل المش وهو يشويه فى ذاكرته على طعم اللحم الذى أكّله
عند صاحبه ..
وعادت الجنة تترامى له ..

● الصحفي

دق جرس التليفون ، فرفعت رأسى بثناقل
واستمعت ..

- الأوبرا تحترق .. ينتظرك المصور هناك ..

- كم الساعة الآن ؟

أغلق التليفون بغير رد .. نظرت فى ساعتى ..
السابعة صباحًا ، ونحن فى رمضان .. المفروض أن
أستيقظ بعد ثلاث ساعات .. رأسى ثقيل من
التعب .

وضعت رأسى تحت المياه فتزلت المياه فى لون عصير القصب ..
انقبض قلبى من لون المياه ومن خبر الأوبرا .. قفزت فى أول تاكسى
صادفتى وأسرعت إلى الأوبرا .. فى الطريق إليها كنت أجمع فى ذهنى
ما أذكره من المعلومات عنها .. لم أجد كثيرًا فى ذهنى ، هى الأوبرا
الثالثة فى العالم ، تحفة أثرية عمرها مائة عام ، افتتحت مع افتتاح قناة
السويس ، وغادرت دنيانا والقناة مغلقة .. ليست معلومات كثيرة ..

لم أدخلها في حياتي سوى مرتين أو ثلاث مرات لعمل .. تذكرت وأنا في الطريق إليها أغنية شهيرة كانت تقول :

- تماثيل رخام عالترعة وأوبرا .. كانت الأغنية تحلم بأن ننشئ الأوبرات في القرى ، وها هي الأوبرا اليتيمة في العاصمة تحترق .. انفرس الإحساس بالكآبة داخل أكثر وأكثر ، أخيراً وصلت إلى مكان الحريق .. إن جمهوراً عظيماً من الناس يلتف حول الأوبرا ، وألسنة النار والدخان ترتفع في السماء .. ليس في الوجود أبشع من الحريق ، يلتئم الناس دائماً حول أى حريق ، غير أن الأمر يختلف هذه المرة .. لم يكن الفضول وحده هو الذى يجمع الواقفين ، ثمة إحساس عام من الحسرة البالغة بليون الوجود .. إن تاريخاً فنياً لقرن بأكمله كان يحترق أمام أعين الواقفين ، حتى الذين لم يدخلوا الأوبرا في حياتهم ، حتى الذين لا يعرفون غير أكثر ألوان التمثيل هبوطاً ، كانوا يحسون بالحزن البالغ ، في البداية ، شاهد الناس رجال الإطفاء وهم يتواثبون وسط النار كالأسود ، كل ما في الأمر أن سرسوب المياه المندفع من خرطوم الإطفاء كان يشبه في أثره كوباً من الماء نلقيه فوق سيارة تحترق .. وكل خرطوم للمياه فيه عشرين خرماً يتسرب منها الماء ، وكاد الحريق يؤدي إلى الغرق لولا ستر الله .

ومثلاً يحدث في الأفلام الكوميدية ، كان سرسوب المياه يزيد من اشتعال النار ، وقبل طوفان سيدنا نوح ، كانوا يستخدمون المياه في الإطفاء ، وفي عصر قدماء المصريين كانوا يستخدمون المواد الكيميائية في الإطفاء ، ثم ارتد الناس إلى استعمال المياه بعد ذهاب حضارة مصر القديمة وعودة التأخر ، ومنذ عشرين سنة ، كف جنود الإطفاء في الدول المتقدمة عن استخدام المياه ، حيث ثبت من الدراسة أن المياه تزيد من اشتعال النار . أما الحرائق الكبرى فتحتاج إلى الكيمياء . لما لها

من صلة بالطبيعة .. رحت أرقب المنظر ، وقد استولى على نفسى
الحزن ، الذى استولى على الجمهور .. بعدها تذكرت أننى جئت
كصحفى ، ولم آت للفرجة ، فانطلقت أعمل ..

أسباب الحريق يا سيدى الصحفى .. أحد هذه الأمور الثلاثة :

إما أن تكون الأسلاك المدفوسة فى الجدران (يجب أن تغير أنت كلمة
المدفوسة ، وتنتقى كلمة أشيك) قد سخنت ، فلما سخنت يا سيدى ،
سخن الخشب ، والخشب إذا سخن احترق (صغ أنت هذه الجملة
بأسلوبك الرشيق) ..

واحتراق الخشب شىء طبيعى يا سيدى .. وليس لنا أن نلوم أحداً
لأن الخشب قد احترق حين لامس السخونة .. إنما الأولى والأجدى أن
نلوم علم الطبيعة الذى وضع فى صفات الخشب أنه يحترق بالتسخين .
الاحتمال الثانى : أن يكون أحد المجهولين قد ألقى عقب سيجارة ،
فلما استلقى عقب السيجارة على الأرض الخشبية ، راح يحترق ،
وأشعلت قبلته الستميمتر الخشبى الذى يلامسه ، ومع الوقت اندلعت
الشرارة من السيجارة إلى الخشب إلى الأوبرا ، وقديماً قال الشاعر :
معظم النار من مستصغر الشرر .. أقرأ كثيراً فى الشعر وأذوقه ، وأحب
الأدب وكانت لى ميولى الأدبية . رغم دراستى التقليدية الصارمة
لا أنكر ميولى الأدبية .. كانت تضغط على حياتى فأريد أن أكتب للسينما
والمسرح ، وأعالج القصة والرواية ، وأقول الشعر وأغنى ..

الاحتمال الثالث : أن يكون هناك جرد قريب ، والجرد يستتبع فتح
المخازن وجردها ، وهذا يزعج الفيران كما تعلم ، ما معنى إزعاج
الفيران ، ربما تكون هذه الفيران قد استولت على بعض أموال الدولة
الأميرية وأكلتها .. فلما عرفت باقتراب موعد الجرد أشعلت النار فى

الأوبرا .. والحقيقة أن المسئول عن هذا الحريق هو إسماعيل باشا ...
نعم ... هو المسئول ... لماذا بناها من الخشب .. ألم يكن يعرف أن
الخشب يحترق .. هي مؤامرة واضحة دبرها إسماعيل باشا عليه اللعنة ..
ومن قتل يقتل ولو بعد حين .. من حرق يحرق ولو بعد حين .. لقد
أنشئت الأوبرا على أرض احترقت بيوتها قبل ذلك ؛ وهذا ظلم بين ..
ثم لاحظ أن الأوبرا مؤقتة .. ينص المرسوم الخديوي على كونها مؤقتة ..
هل ذنبنا نحن أنها أنشئت لتكون أوبرا مؤقتة .. ثم ما هذه الدموع التي
يذرفها المثقفون حول التحف والآثار التي احترقت ، والمجوهرات والتماثيل
التي أكلتها النار .. ليس هذا صحيحاً على الإطلاق .. لم تكن الأوبرا
تضم أى مجوهرات .. صفيح وزجاج ملون .. نعم يا سيدي الصحفي ..
كانت تضم الإكسسوار .. والإكسسوار كما تعلم تقليد للحقائق .

هل تصدق أنت أنه كانت هناك مجوهرات التاج مثلاً في مخازن
الأوبرا ؟

إن المبالغة هي أعدى أعداء الحقيقة .. وأنت صحفي نعرف عن قلمه
الرغبة في قول الحقيقة .. والحقيقة أن احتراق الأوبرا أمر مؤسف .. ولأ
بلاش مؤسف .. أكتبها مؤثراً .. خفض قدر الإمكان من الموضوع ..
لا داعي لحمل الحزن إلى الناس ، احترقت الأوبرا لأنه كان مقدراً في
علم الغيب أن تحترق .. هل تؤمن بالقضاء والقدر أم لا تؤمن .. ثم إنها
ليست هي الأوبرا الوحيدة التي تحترق في العالم ، ياما احترقت أوبرات
وأماكن أعظم .. المشكلة كلها هي في الأشياء التذكارية التي
احترقت .. معلش يا سيدي .. حصل خير ، سنبنى أعظم منها
وأوسع .. وستكون لدينا أوبرا أفضل منها وأشيك .. إنك لا تعرف
مؤامرات الاستعمار وكيدته .. إن الاستعمار مسئول عن كل ضرر يصيب
البلاد .. من أهون الأضرار لأعظمتها .. ومن يدري كيف يستفيد

الاستعمار مما حدث . إن الاستعمار لا يترك أحدًا في حاله .

تعرف اهتمامي القديم بالسياسة .. لقد تنازعتني الجانب الأدبي والجانب السياسي فاخترت جانب الوظيفة . الخدمة العامة . الفناء من أجل الجمهور . لا تتخيل أبدًا كيف نتعب من أجله .. ثم نتهم بالتقصير ..

انتهى ما جمعته من كلمات .. وجلست أنظر فيها .. كنت صائمًا ومدروخًا ومتعبًا وأحس بالحزن .. ورأيت أنني أحتاج إلى أن أصب جام غضبي على أحد .. قلت : إسماعيل باشا هو المسئول عن كل ما حدث .. لو كان بناها كلها من الحجارة لما حدث ما حدث .. غير أن هذا كلام ليس فيه تحديد للمسئولية .. من المسئول إذن عن احتراق الأوبرا ؟

أغلب الظن إذن هناك علاقة بين لون المياه الذي ينزل من الحنفيات كعصير القصب ، ومطبات الطريق ، وأسلوب الحياة ، وطرق الحراسة ، وسلوك الناس وطرائقهم في التفكير .. ونظامهم الحاكم في الحياة ..

قال العامل لنفسه : كيف يمكن لسيجارة مشتعلة أن تحرق الأوبرا وهي تنظفء وحدها في فم الإنسان وهو يدخنها ... ؟

وقال الموظف : قدم الخير وتوكل على الله ، ولا تفول في وشنا وتقول الأسلاك .. إن شاء الله تستحمل الأسلاك ..

وقال خبير : ربنا يستر .. وهو - سبحانه - دائمًا يستر ..

وقال عسكري المظافء : لاحظ أنها كانت مكانًا للرقص والغناء وهذا والعياذ بالله حرام .

واجتمع أسلوب كامل من الحياة .. أسلوب في تناول الأمور والتصرف فيها .. أسلوب من التراخي واللامبالاة وانعدام الكفاية والجهل والكسل والإهمال .. وسبب واحد من هذا كله يحرق أعظم الأوبرات ، فكيف إذا اجتمعت الأسباب كلها؟ .. ماذا أقول حين أعود إلى الجريدة؟ عظيم جدا .. عثرت على البداية ..

«بينما كان الكهربائي نائمًا ، سمع صوت ارتطام شديد بأرض مسرح الأوبرا .. الكائنة وراء قفا تمثال إبراهيم باشا .. فلما استيقظ من النوم وجد الأوبرا تشتعل .. أما الخفير فكان قد تسحر في أمان الله ونام فاستيقظ هو الآخر على صوت استيقاظ الكهربائي ، أما جندي المطافئ فكان صاحبًا هو الآخر فاستيقظ على صوت استيقاظ الخفير ..

الحمد لله الذي هدانا لهذه البداية التي تمتلئ بالنعاس وتصلح لتفسير ما حدث .. نستمر في الموضوع .. وقد تم تحويل المرور من أمام مبنى الأوبرا (سابقًا) إلى الشوارع المحيطة به .. وأدرج في مشروع الميزانية .. إلى آخره .. إلى آخره .. !

● الراقصة

هو الوعد ..

الحمد لله على أى حال .. نحمده ونشكر
فضله ، ونتقبل كل ما تأتي به الحياة من متاعب ..
لو خلقت امرأة أخرى فرمما صار حالى أسعد ، وعلى
أى حال فالسعد وعد ، والمرار وعد ، والمقدر
مقدر ، وليس لى إلا أن أستسلم ..

ولو أن فتحى تزوجنى فرمما تغيرت حياتى كلها ، غير أنه ذهب ،
وجاء بدلاً منه خطاب يتحدث فيه عن حبه لى ، ولم يزل خطابه فى
الشنطة ، كان كاذبًا فى ادعاء الحب ، أعرف ذلك ، تهرأ الخطاب من
طول قراءتى له ؛ رغم ثقتى من كذبه ، أعاود قراءته ، أحيانًا أحسن
أن التوء الوحيد الذى يشدنى للحياة .. هو كلمة الحب اليتيمة فى هذا
الخطاب ..

تعاسة عظمى أن تعيش المرأة بغير حب ، لا يكون لحياتها معنى ،
وتكتمل المأساة حين تُخلع عنا الحياة رداء الاحترام ، نصبح أقوى

وأقسى ، ونرى الكائنات على حقيقتها ، وحوشاً تسوقهم الرغبة ، وتذل أعناقهم فى نفس الوقت ، غير أن هذا النوع من الحياة يقتضى اجتماع شملين .. شمل التعاسة والوحدة .. لا يخدعك رنين الضحكات ، يتزايد الرجال حولى فيتزايد إحساسى بالوحدة ، وتساق كلمات الإعجاب فتغرس فى القلب أشجار التعاسة .. كذب .. هذا كله كذب ، لا سحر للحب فى عالمنا ، ولا سحر للحياة ولا أمل فى شىء .. لا أمل فى شىء غير الخلاص .. أن يتوب الله . تلح على فكرة التوبة هذه الأيام .. لست بهذا السوء الذى يتصوره الناس ، داخلى حنين إلى النقاء والتوبة ، وأحياناً تصعب على نفسى إلى الحد الذى انخرط فيه فى البكاء وأفسد الماكياج .. لكننى لا أهتم .. أكون صادقة الرغبة فى البكاء ، وأحس أن داخلى امرأة أخرى تبكى معى ، وتريد أن تتخلص منى ، وليست أنا ، ولكنها الحلم الذى هو أنا فى الحقيقة .. هزنى شهر رمضان هذا العام ، لم أكن أصوم ، عمرى كله ما صمت إلا وأنا طفلة ، ربما عاماً أو عامين ثم ضاع الصيام وضعت أنا .. لست أعرف الأسباب التى دفعتنى دفعاً إلى الصيام هذا العام .. لم يكن لرمضان حس ولا صوت ككل عام ، جاء فجأة فى يوم كنا نتصور أنه يوم عادى ، لم أسمع الناس يتحدثون عنه أو ينتظرونه أو يستقبلونه ، لا يتحدث الرجال فى عالمنا إلا عما يهمهم فحسب ، ورمضان أعظم من أن يهم الخثالة ، اللهم إنى صائمة ولا أريد أن أشتم ، ولكنك تعرف أن الموقف يحتاج إلى الشتائم .. قلت لنفسى وقد صعب على شهر رمضان ، سأصوم ، إن الناس هم شهر رمضان فى نهاية الأمر ، كما يكون الواحد يحمىء عليه شهر رمضان ، زاد النور فى وجه الشيخ الطيب الذى يسكن جارنا حين جاء عليه رمضان ، وبدأ بياض شفته جميلاً ومهيباً فى نفس الوقت ، ونظرت فى وجهه وقلت إنه فى عمر أبى ، وربما كان قلبه مثل قلب

أبى ، وابتسمت له فاكفهر وجهه وكشر فى وجهى وأسرع فى سيره ، معذور حين كشر ، فهو بالقطع يعرف مهنتى غير أن شيئاً فى قلبى انكسر ..

حدث لى شىء غريب فى أول يوم صمته .. كلما تقدم الوقت أحسست بأن روحى تنسحب من جسمى ، إننى لست أنا ، أكثر خفة .. ربما ، أقل تعاسة .. ربما ، خيل إلى أننى كنت أسكن فى غرفة واسعة سوداء ومظلمة ، ثم أضىء النور فجأة .. صحيح أن حييطان الغرفة لم تزل سوداء ، ولكن النور أضاءها فجأة ..

حدثت مشكلة بسيطة لم أحسب حسابها ، ولم أتوقعها ، ولكننى أراها أنفه من أن تهمنى فى شىء .. ولو مت جوعاً فلن أتراجع ، جربت الجوع الذى يختاره الإنسان ويفرضه على نفسه ، فوجدت عطشه يروى الروح ويوقظ الأمل .. قلب لصاحب الملهى الذى أعمل فيه : لن أفتح زجاجة واحدة فى شهر رمضان ، القانون يمنع ذلك وأنت تفعله ، أنا لا يهمنى القانون ، ولكننى أقول لك إننى لن أشرب كأساً واحداً ولو انطبقت السماء على الأرض .. تستطيع طردى وتشرىدى ، ولكننى لن أطاوعك ..

خرجت من الملهى وأنا صائمة أرتعش ..

فى البداية جلست إلى مكتبه هادئة ، فعزم على بعلبة السجائر .. قلت له رمضان كريم ، فضحك ضحكة صفراء وقال :

— ست الستات صائمة ؟

قلت بيقين وسلام : الحمد لله .

ولو أننى فجرت قبلة من الضحك لما حدث فى الغرفة ما حدث ساعتها .. انقلب فجأة إلى مجموعة من القهقهات المتتابعة ، ضحك

وجهه وضحك كرشه وضحك قفاه ، وصفقت يده ، وكاد يرقص ..
في البداية لم تؤثر ضحكاته فيّ ، تلقيتها بالبرود واللامبالاة .. لماذا
يندهش هكذا لأنني صائمة ؟ .. هل الصوم محرم علىّ ؟ .. هل أغلق الله
باب الرحمة في وجوه العباد .. ؟ هل أنا دنسة إلى الدرجة التي لا يقبل
الله فيها صومي ؟ .. لست متعلمة وأقرأ بصعوبة .. ليس ذنبي أن أحداً
لم يعلمني ، ولو تعلمت فربما أنقذت نفسي ، رغم ذلك أعرف أن باب
الرحمة لم يزل مفتوحاً بغير وساطة وطقوس .. انتظرت حتى انتهى من
الضحك وتجهم وجهه وقال بصوت حاد كالسكين :

– الشغل شغل يا ست الستات .

قلت له ببرود وهدوء : في رمضان لا .. اذبحني .. سأؤدى نمرتي
بالملايس الكاملة وأنصرف .

قال ووجهه يزداد قسوة : هل صدقت ست الستات أنها راقصة ..
قلت له : لست راقصة .. أعرف أنني لست راقصة .. لأكن
ما أكون .. عفريته .. قردة .. تصرف بغير أن تدخلني في الحساب ..
قال مهدداً : كلام كبير يؤثر على مستقبلك ..

قلت واثقة : لم نسمع عن أحدمات من الجوع .

قال ساخراً : كلام الشبيخة غريب ، أى فندق حجزت في الجنة ؟
قلت باحتقار : لا أسمح لك أن تسخر من مشاعري أو من الجنة ..
الكلب الذى تربيته في الملهى أفضل منك لأنه يعرف من أحسن إليه ،
وأنت تجهل من أحسن إليك وخلقك ..

قال متراجعاً : لن أغضب منك .. أعرف أنك عصبية بسبب
السجاير ، لكننى أحذرك من العبث بى وبأعمالى ، هذا ملهى ليلي وليس

ملجأ لذوى القلوب الرحيمة ، ونحن هنا نشغل ولم نأت لنلعب ، فإذا كنت لا تنوين العمل فلا تخضري أساساً .. أنت تخرجيني في وقت رائع ونحتاج لك فيه .. أنت حرة على أى حال ..

قلت له وأنا. أنهضني : اعتبر أنني لن أحضر .

قال : اتفقنا ومع السلامة .

خرجت من الملهى صائمة أرتعش .. كنت في حاجة لسيجارة ، ولكنني قاومت .. هذا الأبله .. هل يتصور أنه يهددني .. ويهددني بماذا .. بأن يقطع عيشي .. ؟ هل يتصور أنه هو الذى يمد لي أسباب العيش لكى يملك قطعها .. ما أعظم جحوق الرجال .. لن أفطر ولن أعود إلى الملهى تحت أى ضغط ، لن أعود لهذه الحياة مهما حدث ، إن شيئاً يحدث داخلى وأنا أتناول طعام الإفطار ، نوع من الفرحه الغامضة التى لا أعرف تفسيرها .. أهى فرحة تلميذة نجحت في امتحان ، لست أعرف ، فلم أكين تلميذة ، غير أنى أتساءل عن صحة القصة التى سمعتها منذ أيام ..

إن امرأة خاطئة سقت كلباً أشرف على الهلاك ، فغفر الله لها كل ذنوبها بذلك .. إننى على استعداد لأن أسقى كل الكلاب فى الأرض ، وأقبل أيديهم ، ولكنى لن أسقى الرجال .. !!

قرار نهائى ، ولن أعود فيه ولو مت من الجوع ..

* * *

جاءتنى رسمية بعد السحور حين أنهت عملها فى الصلاة .

جاءت تتسحر معى ..

أعرف أنها لا تصوم ولكنها جاءت تشاركنى فى محنتى وتجاول إقناعى بالعدول ..

قلت لها : اسمى يا رسمية . أنت صاحبتى وحبيبتى وقرارى نهائى .
قالت : وهى تحاول إخفاء دموع سريعة فى عينها - جاءنا زبائن
عرب .. الحال مزدهر والشغل يحتاج إليك ، ولو مكثت فى البيت فمن
أين تنفقين ؟ ..

قلت : ليذهب الشغل إلى الجحيم .. يتولانى الذى يتولى الدود
ويرزقه فى الحجارة .

قالت : لن أحاول صرفك عن قرارك . تتحدث الصلاة كلها عن
شتمتك له ، وقد صنعنا لك فى نفوسنا تمثالاً من الذهب .. لقد شفيت
صدورنا . بتزيثك له .

تسحرنا معاً .. طبقاً من الفول وقطعة من اللحم أقسمت على رسمية
أن تأكلها وحدها .. ووضعنا السكر على الزبادى وحلبنا به ..

تساءلت رسمية وقالت وهى تنهياً للانصراف :

- كم معك من النقود ؟ ..

قلت : ١٣٠ قرشاً ..

قالت : معى ما يكمل ثلاثة جنيهات .. لو كان معى أكثر .. ثم
صمتت .. أصدقها وأعرف أننا نعيش من اليد مباشرة إلى الفم ..

جلست بعد انصرافها أمام الجنيهات الثلاثة ..

ينقصها ثلاثة جنيهات لأدفع إيجار الشقة .. فمن أين آكل بقية
الشهر ؟ .. وماذا أفعل بقية العمر ؟ ..

دهمنى خوف مفاجئ .. ليس لى فى الدنيا أحد فإذا أفعل ..
جلست أمام الراديو وفتحته ورحت أستمع لأمواج الخوف داخلى ..

غداً أبيع الراديو وآكله .. فما بعد ، غداً ؟ ..

● الحاج والشيخ

وكان الحاج أحسن قد سافر في العام الماضي إلى
الحجاز وأدى العمرة .. وبعدها حج . كان مسافراً ..
أدركه الجهل فظن أن السفر هو الانتقال من مكان
إلى مكان .. وحين عاد من رحلته نادى صبيه وأمره
أن ينادى له خطأً شهيراً في الحى اسمه القرد .. فلما
جاء أمره أن يغير له لافتة المحل ويكتب قبلها
الحاج .. وكان لا يرد على من يناديه بغير أن يضيف
لاسمه لقب الحاج ،

وكان ينفش صدره ويملؤه الزهو حين يجلس وسط المعلمين ويحكى
عن ذكرياته في العمرة والحج ..

كان يبدأ الحديث دائماً بقوله - على الطلاق بالثلاثة من نسوانى
الثلاثة .. إني يا جدعان قد انبسطت انبساطاً ليس بعده انبساط فى
الحج .. وقد نذرت أن أحج كل عام .. والمسألة بسيطة ، يتكلف الحج
ثلثائه جنيه ، هى مكسبى فى أسبوع ، ووالله لو كان الحج كل شهر

لذهبت إلى الحج كل شهر .. يا سلام على المتعة .. شيء مدهش والله
زيارة النبي المصطفى .. أى ورب الكعبة .. أى جمال .. أى جمال ..
هذه المسبحة العتيق من هناك .. وهذه الجبة الكشمير من هناك .. من
عند سيدنا الحبيب ..

* * *

أنت مثل هذا الحاج .. مثقف أنت لكنك مثله .. مضحك
ومغرور .. ذهبت من مكان إلى مكان ، غادرت القاهرة وسافرت فقالت
لك نفسك إنك سافرت ، لم تعرف حديث القرآن عن النفس .. إن
النفس لأمانة بالسوء إلا ما رحم ربي .. لم يرحمك ربك لأنه لم يجد
داخلك ما يستحق الرحمة .. كان حجك ابتلاء وفتنة .. إن الله تعالى
يبتلي الناس بالخير والشر . « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » والحج خير ، وقد
ابتليت به فلم تدرك منه غير مشقة الطريق وغبار السفر .

* * *

سكت شيخى وسكت ..

لفنا صمت ثقيل غامض .

أدهشنى ما قاله لى منذ لحظات .. ألهذا الحد يزدرينى شيخى .. ألهذا
الحد يرانى تخلوا من الخير .. وكأنما قرأ الشيخ أفكارى فقال :

- لا يدركك كبرياء إبليس فتعتقد أننى أزدريك ، وتغضب ..
ولا يدركك ثناقل الطين الذى خلقت منه فتتوهم أن لا أمل فيك
وتياس .. حاول معى أن تفكر بقلبك . دعك من العقل والنفس
والحواس لحظة ، ولتفكر بقلبك ..

لقد منعك عملك هذا العام أن تخرج إلى العمرة .. منعك ظروف
العمل أن تسافر .. ألم تقل لى ذلك حين سألتك لماذا لم تسافر .. لقد

فهمت حديثي خطأ .. كنت أتحدث عن طريق وكنت تفكر أنت في طريق آخر .. وليست كل الطرق توصلك إلى الله .. والسفر ليس انتقالاً في المكان ، وليس رحلة في الزمان .. لا يسمى من يغادر أرضه مسافراً ، ولا يسمى من يعود بعقله إلى الأيام القديمة مسافراً ، السفر عندنا له طريق واحد .. أن يأخذ قلبك في التوجه إلى الله .. هذا هو السفر الحقيقي عند الصوفية ، ليس السفر شيئاً خارجياً عن القلب ، إنما هو انتقال من ذوق إلى ذوق ، من حال إلى حال ، من مقام إلى مقام ، في البدء تعجبك شفاه النساء وعيونهن وأجسادهن ، ثم تنظر بعدها لهذا كله فتراه صورة وليس حقيقة ، صورة خلقها الحق ، ثم تترقى قليلاً فلا ترى الصورة وترى نفسك أمام المصور الباريء ، ثم تترقى أكثر فلا ترى نفسك .. تضع نفسك ولا ترى غير الباريء .. هذا هو السفر الحقيقي يا سيدي ..

وهذا السفر لا يقتضى منك حركة بالبدن ، ولا يقتضى منك مشقة انتقال .. رار أحد الصوفية بيت الله الحرام ثلاث مرات .. حج ثلاث مرات .. رأى نفسه ورأى البيت في المرة الأولى .. فكانت هذه حجة العوام .

ورأى البيت في المرة الثانية ولم ير نفسه .. وكانت هذه حجة الخاصة ..

ورأى رب البيت في المرة الثالثة ولم ير البيت ولم ير نفسه .. وكانت هذه حجة خاصة الخاصة .. ثم سافر حقاً وهو في مكانه ، بينما هو يشتغل في دكانه حين رأى أنه ينبغي عليه أن يتقن عمله ويخلص قلبه لله لأن الله يراه طيلة الوقت ويطلع على عمله طيلة الوقت . وفي اللحظة التي أدرك فيها الإخلاص ذهب إليه البيت الحرام وهو في مكانه .

عاد إلى الصمت فاحترمت صمته وجلست ساكناً .. ثم تحرك الشيخ

قليلاً فقلت :

- كنت أريد أن أسافر إلى الله .. أوحشتني الكعبة .

قال وهو يتسم : ' لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين
ولا سفر المسافرين ، لا مسافة بينك وبين الله لتسافر إليه .. الله أقرب
إليك من حبل الوريد ، ولا مسافة بينك وبينه ، حتى تطويها رحلتك ،
ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك ..

فقلت لشيخى - يندى لكلامك القلب .

قال شيخى - ليس كلامى .. هذه عبارة وضعها الله على لسان ابن
عطاء الله السكندرى ..

قلت - تأمرنى بعدم الحزن على فوات العمرة وضياع السفر ..

قال - لم تفهمنى بعد .. بل آمرك بالحزن على فوات السفر بقلبك ..
هذا أصعب أنواع السفر لكنه هو السفر الوحيد المعترف به عندنا ..

وأوله ليس استخراج الباسبور وإنما محاسبة نفسك ومراعاة خواطرك
مع الأوقات ، واستشعار الحياء من الله تعالى بقلبك ، وقراءة القرآن
وتطبيقه على نفسك وفي الحياة حتى يصير خلقك القرآن ، هذه إجراءات
السفر الذى أعنيه .. بعدها اجلس وفي قلبك الله وحده وانتظر .. لن
تسافر إلى الله بعقلك ، وإنما يكون السفر بالقلب .

قال ابن عربى «وأما المسافرون فى طريق الله فطائفتان .. طائفة
سافرت فيه بأفكارها وعقولها ، فضلت عن الطريق ، ولا بد أن تضل ،
فإنهم لا يملكون دليلاً سوى فكرهم ، وليس الفكر المحدود بقادر على
إدراك غير المحدود ، وهناك طائفة أخرى سوفر بها فيه .. وهم الرسل
والأنبياء والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية .. ابدأ
بتقاء القلب أولاً وانتظر أن يسافر بك الله ، فإن السفر مردود فى النهاية

إلى محض فضل الله .. ولا دخل لك فيه ..

تساءلت - أين دور الإرادة الإنسانية والقدرة البشرية ..

قال : الإرادة موجودة والقدرة موجودة وإنما يقرر ابن عربى ما يقرره تأديباً مع الله .. مصداقاً لقوله تعالى « **وإليه يرجع الأمر كله** » غير أنه يقرر أهمية الإرادة في السفر ، لا يسافر هذا النوع من السفر غير إنسان شجاع ، والشجاعة مطلوبة هنا لأن هذا الطريق لشرفه تكتنفه الآفات والأمور المهلكة والفتن ، وطريق الصوفية طريق الشدة وليس للرخاء فيه مدخل .. والسفر عندهم قطعة من العذاب ، والمسافر منتقل من عذاب إلى عذاب فلا راحة .. حتى يجيء السفر الحقيقي ويسافر بك الله .. وساعتها تبدأ الراحة ..

قلت لشيخى - أتعذب عذاباً متصللاً وأحلم بالراحة .

قال : عذابك ينبع من ذنوبك ، وأنا أحدثك عن عذاب آخر هو عذاب الشرفاء الحقيقيين .. عذاب المسافرين إلى الله حقاً .. الصمت والجوع والسهر مع الخلوة .. أربعة أركان يبدأ منها المسافرون إلى الله سفرهم بحق ..

قلت مردداً كلمات الشيخ - الصمت والجوع والسهر مع الخلوة .. أربعة أركان يبدأ منها المسافر إلى الله .

قال شيخى - ليست الخلوة عزلة مادية عن الخلق ، إنما العزلة مجرد انقطاع معنوى لا حقيقى عن الخلق ، بحيث تكون وسط الناس ولكنك غائب عنهم بقلبك .. تراقب نفسك وتحاذر أن تشغل ذهنك بالعالم ، المراد من العزلة تصفية القلب والأذنين من فضول الكلام ، وهذيان العالم .. والعزلة نوعان ، عزلة بالجسد عن مخالطة الناس ، وهذه عزلة البسطاء ، وعزلة القلوب عن الأكوان .. وهذه عزلة المحققين .. والمعتزل نوعان ، معتزل ينوى اتقاء شر الناس ، وهذا معتزل لم يدرك أن شرف

العزلة ومقامها الركين أن يعتزل الإنسان ليكيف عن الناس شره هو وأذاه .. ذلك أن الأولى بالمسافر إلى الله أن يسئ لظن بنفسه لا بالناس .. وأعلى درجات العزلة أن يؤثر المعتزل ربه على غيره ، وأرفع أحوال العزلة الخلوة ، فإن الخلوة عزلة في العزلة .. وهو أقوى .

قلت لشيخى : فما هو الصمت .

قال : من اعتزل الناس وهو بينهم ، صمت لسانه .. والصمت على قسمين ، صمت باللسان عن الحديث لغير الله تعالى ، بمعنى الصمت إلا ما كان للناس فيه خير ، كتعليم نافع أو إرشاد إلى المصلحة أو معاونة للخلق ، فإن تجاوز ذلك إلى الهراء أو الهديان أو مجرد الكلام للكلام سقط الصمت ، وصمت اللسان أبسط أنواع الصمت ، وهناك صمت القلب ، بمعنى تجاوزه للأكوان المخلوقة وتوقفه بالصمت أمام الخالق بحيث لا تعبره فكرة غيره . والصمت بهذا المعنى هو صمت المحققين ، وهذا يورث معرفة الله . وهذا هو الصوم الحقيقي ، ليس الصوم هو الامتناع عن الطعام والشراب . انظر لقول الله تعالى لمريم «فكلى واشربى وقرى عيننا ، فأما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» .

قلت لشيخى : فما هو الجوع والسهر .

قال شيخى : الجوع نوعان ، جوع اختياري هو جوع السالكين ، وجوع اضطراري هو جوع المحققين . جوع إلى نقاء الحياة بحيث تصير أفضل مما هي عليه ، وسهر طويل يأتي نتيجة هذا الجوع الذي لا تصطنعه .. وإلا يربك قل لي كيف تنام والأرض تمتلئ بالظلام وفي يدك أنت شمعة تستطيع أن تشعلها .

كيف تستطيع أن تنام .. ؟

● المسحراقي

الساعة الثانية والنصف صباحًا ..

رفع يده وهوى بقطعة الجلد على الطلبة ..

- لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ..

رنت كلمته في الحارة الضيقة فأفرغت القلوظ
النائمة وأفرعته هو نفسه ..

- اصحى يا نائم وحد ربك ..

ترامت الكلمات واصطدمت بمجدران البيوت التي
سقط ملاحظها وعادت تتردد ..

هز أحد الكلاب ذيله بصدقة .. ورفع قدمه وفكر أن يوجه إليه
رفسة قوية ولكنه لم يجد في نفسه العزم ، ورأى نفسه أقرب إلى الكسل
فعاد يخفض قدمه ويزعق ..

- لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ..

قالها قبل ذلك ، ها هو يكرر نفسه ، كل يوم يقول نفس الكلمات

التي يقوفا ، بلا تغيير ولا تجديد ولا إضافة ولا زيادة ولا نقص ،
بهتت الكلمات ورثت من طول تردادها ، صارت تشبه ثوبه القديم الذي
لم يعد يستطيع أن يصد عنه برد الشتاء الذي بدأ يفقد لطفه ..
- رمضان كريم ..

زقق بها زعقة هائلة فجرى الكلب من أمامه ، ورفعت القطط
رأسها وعادت تقرأ ، وشاط بقدمه من الغيظ وزعق :
- اصحى يا نايم ..

بذمتك يا شيخ هل تصدق أنك توقظ أحدًا .. من الذي سيصحو
على كلماتك .. سخر في نفسه من نفسه .. اللعنة على التطور .. انتهى
الأمر وقذفت به الحياة خارج أسوارها .. أصبح يعيش على الهامش شأنه
شأن بائع الطرايش .. يقول اصحى يا نايم .. لماذا .. هل عدت
المنبهات .. هل ماتت الساعات .. كان هذا زمان .. حين كانت الشمس
هى ساعة النهار ، والقمر هو ساعة الليل ، أما اليوم فقد تطورت
الدنيا ، واخترع ابن آدم بعقله اللئيم ساعات تدق ، وساعات تدندن ،
ومنبهات تصفر وتزمر وتوقظه .. وحتى لو انكسرت كل منبهات المدينة
وساعاتها .. فالإذاعة صاحية ، والتليفزيون حى ، ولا أمل أن يوقظ
أحدًا غير القطط والكلاب ..

عاد يخوض بأقدامه فى وحل الحارة ويزعق :

- لا أوحش الله منك يا شهر القيام ..

بالذمة والديانة والأمانة والملة .. هل تصدق نفسك .. بدينك
يا شيخ هل تعتقد أن ما تقوله حق .. أى قيام .. قيام للهبط الفول
وتغميس الزبادى ..

فى الأيام القديمة الطيبة كان الشهر شهرًا للقيام حقا ، كانت المساجد

تتمتلىء بالناس ثم تخلو لتمتلىء المقاهى ، ثم تخلو لتمتلىء البيوت .. وكان القراء والمنشدون والذاكرون يقضون الليل كله فى القيام والعبادة والذكر والإنشاد وقراءة قصة المولد .. الله يرحمك يا شيخ عبده .. كانت أيامك كلها خير وقتة ولحم وحلوى وقطائف .. قسماً بالله ما عباد يذكر طعم القطايف ولا عباد يسمع أحداً يتكلم عنها .. كأنها ماتت حين مات شيخ المنشدين الذى لم يكن يحلو له السحور إلا على صوته .. ولا كان يحلو له تناول الحلوى إلا إذا استدعاه ..

– لا أوحش الله منك يا شهر رمضان ..

صوته نشاز مغشلق مبجوح وأدنى إلى السخط والغضب .. والسبب هى السجاير الفرط التى تقطع قلبه طوال الوقت وهو ينحنى على المنضدة لكى الملابس .. مكوجى السعادة فأى سعادة .. سعادة البؤس أم سعادة الشقاء أم سعادة الغلب .. أم سعادة المكوجى .. ما أعظم لافتات السعادة والهناء والنصر فى مصر والعكس هو الصحيح .. لم يكن زمان يعمل غير عمله كمسحراتى ، أما اليوم فقد اضطرت الظروف إلى العمل مكوجياً ، وصارت مهنة المسحراتى مهنة إضافية ، وحين صدر قانون تحريم الجمع بين الوظائف لم يسلم من تريقة الزبائن والزملاء .. نهايته .. جمع أحباله الصوتية وزعق :

– لا أوحش الله منك يا شهر التراويح ..

كذب .. والله هذا كذب .. أى تراويح .. لا يصلى التراويح فى المسجد القريب غير مجموعة من المشايخ والعجايز الذين وهن عظمهم واشتعلت رعوسهم كاللفت الأبيض ، ووضعوا قدمًا فى القبر وتهاؤوا للنزول .. رحم الله أيام الشيخ حسن .. كان حين يأتى إلى الجامع يشد كالمغطيس آلافاً خلفه ، وكان بكأؤهم يبدأ إذا بدأ القراءة بصوته

العذب المؤثر ، فإذا انتهت الصلاة ، أحس المرء أنه كان يصلى ويستحم من ذنوبه في نفس الوقت ..

رحم الله أيام زمان ..

- رمضان كريم ..

اصحى يا حاج عبده ، يا عم محمود ، اصحى يا إسماعيل أفندى ، اصحى يا حسن بك ، اصحى يا حاج سلام ..

راح يكرر ما يقوله بصوت قوى مزلزل وقد بلغ غيظه أوجه ، ووصل حنقه مداه ، يعرف أن الحاج عبده وعم محمود وإسماعيل أفندى وتحسن بك وعم سلام ، يعرف أنهم جميعاً مستيقظون وليسوا في حاجة إليه .. يعرف ذلك لأنه حين يمر عليهم بعد انتهاء شهر رمضان لأخذ العيضية من الكحك ينظرون إليه نظرات تؤكد دهشتهم ، ويسألونه هل تصور أنهم كانوا نائمين وأنه أيقظهم .. كانوا مستيقظين وأزعجهم بصراخه وجعل اللقمة تقف في زورهم بصراحة .. وبين كل عشرين بيتاً يشتري أحد البيوت الكحك .. صار الكحك أثرًا تاريخياً كباب زويلة ، ونحن في غاية الأسف يا سيدنا المسحراق لأننا لم نشتر الكحك ولم نخبزه ، إلا إذا كنت تحب أن نشترى الكحك خصيصاً لسعادتك ..

اصطدمت قدمه بكومة من الزبالة وتسلت الرائحة العفنة إلى أنفه فأزاح بقدمه ما اعترضه وعاد يخوض في الحارة .. يزداد ضيق الحارة وتتساند بيوتها وتبدو عروقها الجافة العجوزة كلما أوغل في السير .. ألا يكفيه بؤسه الخالص حتى تعثر رجله فيما عثرت فيه .. وقف وشد صدره وزعق زعقة هائلة :

- يا شهر الصيام يا شهر الصيام ..

ورنت في أعماقه ضحكة مريرة مجلجلة وساخرة .. شهر الصيام فعلاً
وقد ازدانت شوارعه بدخان السجاير من الصائمين .. يا شهر الصيام
يا شهر الصيام .. كان يقولها بغیظ شديد وحنق بالغ .. يا شهر الصيام
يا ...

● جرى إيه يا ابني .. العيال صحيت مفزوعة .. إنت ما عندكش
دم والا إيه .. فيه مدرسة الصبح ... سمعناها مرة .. هي سورة ..

رفع رأسه فاصطدم بالمعلم كبده .. آه .. لا داعي للنقاش مع
المعلم .. فهو أثناء النهار صائم ولا يرى وأثناء الليل مسطول ولا يرى ..
- معلش يا معلم كبده كل سنة وأنت طيب .

● طيب زق عجلك بقه .. إحنه ميتين .. عندنا منبه وراوى
حتى أنت يا معلم كبده وصلتلك المدينة .. وعندك منبه وراوى ..
اسمه راديو يا معلم وليس رادوى .. رادوى هذا اسمه بالطليانى .. ملعون
أبو هذا الزمن يا معلم كبده ..
قال الكلمات لنفسه وهو يتأمل وجه المعلم صامتاً .. وأحس المعلم أنه
لم يفهم فعاد يقول له بصوت ممطوط :

- توكل على الله بقه وبلاش تتييس .. زق عجلك يا

آه .. بدأ المعلم يغط فيه .. سار قليلاً ورفع الطبله في يده وانها
بقطعة الجلد .. وأنشد بصوت ممطوط ممدود يتأرجح بين الغناء
والحشرجة ...

- اصحى يا معلم كبده يا أجدع معلم يا تحفة يا نورة يا ورد
يا فللى ..

وانتظر أن يتحرك وجه المعلم بانبساط ، أو انشراح ولكن وجه المعلم ظل على جموده .. وحث خطاه ونفذ من الحارة الضيقة إلى المقهى الصغير الصاحي .. وقف يطبل عنده ويغنى :

لا أوحش الله منك يا شهر رمضان ..

لم يسمعه أحد من الزبائن .. كان الراديو في المقهى مفتوحاً وكل إنسان مغلق على مشاكله ونفسه ، وفجأة بدأ مسحراتي الإذاعة ..

انطلقت الكلمات ساحرة موزونة تغنى وحدها بغير لحن .. انطلقت تتحدث عن روح مصر وحقول الذرة ومصانع الحديد وأطفال العمال ونجوم الأمل وبحار العلم وجداول الفناعة .. كما انطلقت تتحدث عن الرضا والحب والصدقة .. وطوته الكلمات فسكت وسكت الجالسون وسكت الهواء واسمع الكل ..

انتهى فؤاد حداد من كلماته فقال المسحراتي وهو يرفع الطبل في يده :

والله مصيبة وجات لنا .. الإذاعة رخرة بتزق علينا .. الواحد يعمل إيه في البلد دى .. بهاجر .. بيقولو كندا عايزه مسحراتية .. أروح كندا يعني .. ولآ أروح كندا ..

أجابه أحد رواد المقهى بهدوء وجد :

- ليه تروح كندا ما أنت عايش معنا في نكدا .. !!

● الجندي

الدنيا ليل ..

القمر يغسل بالفضة الشاطئ القريب

على بعد خطوات منى تجري مياه قناة
السويس .. تشبه القناة جرحاً عميقاً في روحى ،
جرحاً أعرف أن ألمه لا ينتمى لألوان الألم المادى
المعروفة ، جرحاً أعرف أن علاجه الوحيد هو
تجاوزه .. هو العبور . يدي أدفأت حديد البندقية ..
وقلبي أقسى من صخور الجبال التى احتلت فى
سيناء ،

والصمت ينشر ألويته فى المكان .. وأنا أقف ساكناً أترقب
وأترصد .. أعرف أن كل ذرة من الصمت هى فرصة لثرة ناضجة ..
فلاح أنا .. جدى فلاح تذكره بالخير آلاف الشجيرات التى زرعها ،
وأبى مدرس يذكره بالخير آلاف التلاميذ ، وأنا جندي فى الجيش
المصرى .. تخرجت من الجامعة وكان المفروض أن أشتغل مهنياً ،

ولكننى جندت . كنت مثل آلاف الشباب لا أجد طعمًا لحياتى قبل أن ألتحق بالجيش ، كنت أبتسم وأضحك وأغازل وأحب وأكل وأشرب وأرتدى الملابس الجديدة ، وأهتم بمظهري ، وأحس رغم هذا كله بالخواء وانعدام المعنى .. ليست مشكلتى أننى درست الفلسفة فى الكلية وأن لى عقلاً لا يكف عن التساؤل . كانت مشكلتى أننى أريد أن أفهم دورى فى الكوكب الصغير الذى أعيش عليه .. دورى كإنسان . ودورى كرجل . ودورى كمصرى .

وحيث انسحب الجيش المصرى من سيناء منذ خمس سنوات نتيجة لخطأ قيادته ، انسكب حزن الناس على الجيش وامتلأت القلوب بالمرارة .. وانكسرت نفسى أنا تمامًا ..

كنت تلميذًا فى السنة النهائية فى الجامعة ، وبدت لى دروس الفلسفة وآراء الفلاسفة المتعارضة ومناقشاتهم ومشاجراتهم .. بدا لى هذا كله عديم المعنى وباعثًا على السخرية .

كان يخيل لى أننا نشبه أهل بيزنطة حين انعقد مجلس الحكماء فيهم وراح وجوه القوم والحكماء يتناقشون ويتساءلون أيها جاء قبل الآخر .. البيضة أم الفرخة .. أيها ولد قبل الآخر ... حدث هذا فى الوقت الذى كانت أحذية الغزاة تدك أسوار بيزنطة وتتهبأ لاحتلالها . أصابنى شىء يشبه الجنون ..

كرهت نفسى بعد الهزيمة ، وكرهت حياتى المدنية ، واحتقرت السلامة التى أعيش فيها ، وتمزق سلامى الداخلى فجأة وإلى الأبد ، وأغرقتنى موجة سوداء من كراهية الذات ، وصار لزامًا على أن أعيش مع إنسان أحتقره هو أنا .. ومرت السنة النهائية فى الكلية ثقيلة واجتزت الامتحان بدرجات عادية ، بعد أن كنت من الأوائل ، وحين عرفت

أننى سأجند فى الجيش عاد لى نفسى جزء من سلامها المفقود .. عاد لى نفسى بعض إحترامها الذى ضاع ، لم أكن أفهم كيف يشرب الناس ويأكلون ويضحكون وجزء من تراب مصر تحت الاحتلال .. لىكن هذا الجزء صحراء . لىكن هذا الجزء رمالاً .. لىكن هذا الجزء ذرة واحدة من التراب .. كيف يمكن للشباب أن يسكت .. تمنيت لو كان لى عشرة آلاف جسد وعشرة آلاف روح لأذبحها جميعاً فداء قبضة من تراب مصر ..

لىست المسألة أنى مدين لمصر وأريد أن أسدد بعض دينى لها ..

لم تعط مصر لىلى غير الموم والمتاعب .. لىست هذه هى المشكلة .. نحن فى الحب لا نتعامل مثلاً يتعامل التجار .. تعطيه الثمن فىعطيك ما ترغبه .. للحب قوانينه التى لا تخضع للمنطق .. أنت تعطى فى الحب كل شىء ولا تنتظر غير أن يتقبل من تحبه .. مجرد قبوله هو جزاؤك النهائى .. وهذا كل ما أريد من مصر .. أن تقبل اليوم دفاعى عنها وحراستى لأرضها .. وأن تقبل غداً دى عندما ينسكب .. أريد من الأرض أن تحس بالرضا وهى تستقبل دى .. كم أعطت هذه الأرض دون انتظار لىء ، وكم صار من حقها اليوم أن تستقبل .

لىست مجنوناً كما تعتقد ابنة خالتى .. كانت مخطوبة لى ونحن أطفال .. وأعلنتها قبل دخولى الجيش بإنهاء هذه الخطبة .. سألتنى عيناها بغير أن تتكلم .

- أهناك غيرى ؟

وأجبتها بهدوء - أنا لا أحب غيرك . كل ما فى الأمر أننى مريض .. لم أعد نفس الرجل الذى تعرفينه ، إننى أحلك من وعد الزواج . لم تفهم .. أو لعلها فهمت أنى مريض وفى حاجة لأن أذهب إلى

الطبيب ، غير أنني لم أحدثها أن مرضى الوحيد لا شفاء منه إلا إذا وقفت على خط النار . وارتديت ثياب الجندي ، وقبضت بيدي على السلاح ، ورأيت روحى أهون من التراب الذى أقف عليه .. ساعتها فحسب أعود رجلاً كما كنت .. وقديماً كان الجندي المسلم إذا هزم لم يلمس النساء ولم يتعطر ولم يتطيب حتى يسترد كرامته ويغسل عنه عار الهزيمة .. وأنا جندي مسلم .. مصرى مسلم .. لى جبهة إختاتون ، وأنف خوفو ، وهموم رفاة الطهطاوى ، وطموح سعد زغلول ، وكبرياء أحمد عرابى ، ونقاء رهبان الصحراء القدامى ، غير أن قلبي على قلب عمر بن الخطاب .. اخترت هذا القلب اختياراً نهائياً وانتهى الأمر ، ولأننى على دين هذا القلب فأنا أعرف أن الموت ليس نهاية ، إنما هو نوم أستيقظ بعده يوم القيامة .. ولو اختبأت فى كهف محصن وعشت فيه مائة عام فسوف أموت بعدها ، وما دمنا سنموت بالتأكيد فلنختر ميتة الشرفاء ، وليس أشرف من الموت دفاعاً عن الأم الكبرى .. أم الدنيا ..

يقترّب موعد السحور .. صائم أنا رغم أن التعليمات تبيح الإفطار .. هناك فتوى بجواز الإفطار لمن يقف على الجبهة .. إن يقظة الحراسة لون من ألوان العبادة . أعرف ذلك ، غير أنني صائم ويقظ .. يزيدنى الجوع حدة ويقظة ويدنينى أكثر من الله .. أعرف أن السلاح العظيم فى يد الجندي يفقد قيمته لو فقد صاحبه إيمانه ..

إن الأرض رمز فى نهاية الأمر لقيم معينة نريدها أن تستقر فوقها . والأرض وحدها بغير القيم لا تعنى شيئاً ، ولو لم تقدم مصر التقوم الشمسى والزراعة والفلك والكيمياء ، لو لم تقدم مصر فجر الضمير لما كانت مصر .. تعطى القيم للأرض قيمتها كأرض . وأنا أعرف من قراءة التاريخ أن السلاح والكثرة مع الغرور والوفرة لا يعنى شيئاً إذا ضاع الإيمان أو نقص أو تخلخل .

وقديماً أعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين فلم تغن عنهم هذه الكثرة
من الله شيئاً وهزموا ، وفي حربنا الأخيرة كان إعجابنا بكثرتنا أعظم من
إيماننا بالله فانكسرتنا .. واليوم لا أريد أن أنكسر .. ولهذا أحتمى
بالصوم .. يزيدني العار عزوفاً عن الطعام ، ويزيدني الصوم عطشاً إلى
الثار .

● المجذوب الراقص

انعمدت حلقة الرجال واستطالت ..

المجذوب الكبير وسطهم مثل وردة وسط حقل
من القمح ..

ملابسه حمراء وزرقاء وخضراء ، وعمامته
بنفسجية وموف ، من وسطه تتدلى سماعة تليفون وقد
طلب وليًا في المتصورة منذ ساعة والخط عطلان ..

هكذا كلم أتباعه فهزوا رءوسهم ولكن أحدًا لم يجرؤ على فتح فمه
والحديث عن فوضى التليفونات ، فهذه مصلحة تليفونات الجن ، وربما
كان الجن الذى كلف بمهمة توصيل الخط قد صعد إلى القمر ليلعب
هناك وسيعود بعد دقيقة .. وعلى أى حال فإن الخوض فى هذا الموضوع
قد يؤدى بالمرء إلى المهالك ، والأولى هو السكوت .. الأمر كله يكتنفه
السرو وتحرسه الأسرار والأولى إمساك السر . الخزابة هائلة .. والخيمة تحتل
نصف الخلاء ، وقد أصر المجذوب على إضاءتها بالمشاعل القديمة ، بدلاً
من النور ، قال أضيئوها بالنار فأطاعوه فى صمت .. وراح اللهب

يتراقص على ملامح الرجال فيصنع من ظلالهم على قماش الخيمة أحجاماً أكبر من أحجامهم في الحقيقة .. على مقربة منهم ترقد القاهرة الفاطمية بأوليائها الحقيقيين .. سيدنا الحسين قتل في سبيل الله وهو يجارب .. قتل بعد صوم طويل على المياه .. قتلوه وهو ظامئ .. وبكاه الناس ولكنهم أسلموه لأعدائه .. أى مهزلة كئيبة تجرى على ظهر الأرض .. ثمة لحظات يضيء فيها المسرح الترابي بعمل له معناه .. دعوة نبي ، صراع بين جبار في الأرض وداعية إلى الحق ، رجل يلفظ كلمة الرفض فيقتله ممثل الباطل ، وتنبت من دماء القتل زهرة وحيدة ، زهرة تحيطها تلال الرمال ، مجرد حركة الزهرة في هذا المكان يعنى أن كل شيء له معناه ..

الخزابة الواسعة لا تضم زهرة واحدة .. في الجزء البعيد عن الخيمة يرتفع تل من علب كانت قبل ذلك أطعمة محفوظة ، وهناك تراب وطين .. وبعض نبات الصبار ، ومن المعروف أن نبات الصبار مر ، ولا أحد يعرف لماذا اختار نبات الصبار أن ينمو جوار أجساد الموتى .. أيستعير مرارته من مرارة الذنوب .. ؟ أم أنه هو نفسه ذنب .. ؟ أم أنه هو نفسه سر من الأسرار لا ندرى عنه شيئاً ..

أغلب الظن أنه سر .. مثل هذا المجذوب الذى يجلس وسط الرجال في الخيمة استعداداً لبدء حلقة الرقص الذى يسمونه الذكر افتراء على الله ..

وقديماً كان الذكر في الإسلام هو حمل السلاح والخروج . وكان أعظم الذاكرين هو أعظم المقاتلين ، ووضعت الشريعة الإلهية تقليداً لدم الشهيد فقصت ألا يغسل أو يكفن في غير ملابسه التى قتل فيها ، وحدث رسول الله عن رجال يميثون يوم القيامة وجراحهم تنزف .. اللون لون الدم والريح ريح المسك .. ومر الوقت فنزلت الهمم من الدور العاشر إلى البدروم .. وسكنت جوار الأرض واستكانت للأرض ،

واكتفى الأتباع بالابتداع بدلاً من سلوك الطريق ..

ورأى الرجال وأقل واحد فيهم فى طول الشمروخ أن الأولى الجهاد فى صوانى الفت واللحم . وأن الأجدى اللجوء للجن بدلاً من الساعد .. وتحول الإسلام - لولا بعض الرجال - إلى نقوش على الذراع بدل دم يجرى فى الجسد .. ونمت على جدار الإسلام العظيم آلاف الطحالب السامة ، ونسجت العناكب بيوتها الواهية فى أركان الظلام والامية والجهل والخزافة .. وتحرك المجذوب حركة مفاجئة فدفق هناك دقات بدأت بطيئة ولم تلبث أن تحولت إلى السرعة ..

أه أه أه ..

الله .. الله .. الله ..

أه أه أه ..

الليلة هى الليلة الكبيرة .. أى ليلة كبيرة .. لا أحد يدرى ، كل الليالى عند المجاذيب كبيرة .. وكل الأيام عظيمة .. والمجذوب يقف وسط الراقصين يضبط إيقاع الحركة بخطواته الهادئة وإيقاع يديه وهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الشرق وإلى الغرب ، وهو يرمق أفراد الحلقة بنظراته الصاعقة الخاطفة .. إذا أحس بتراخ صفق يديه مسرعاً فيتحول إيقاع الدف إلى السرعة ، ويتحول عازف الناي إلى كهرباء تهز الحاضرين .. ثم يجيء دور المنشد .. يتحدث المنشد كثيراً عن الهوى الذى يمزق قلبه ، عن العشق الذى أخذ بروحه .. عن الجوى الذى ملك عليه نفسه ، عن جنونه وانجذابه حبا فى الحق ، وتقول له إن الحق يفرق أمامك وهو فى حاجة لمن يمد إليه حبل النجاة وينقذه فيزداد بكأوه ويزداد تأكيداً لهواه الذى يضيع أمامه وهو يقف كالنطع ..

وقف المجذوب يرقب حركة الدف والراقصين والمنشد ، كان الرقص

على أشده .. سخن الرقص أكثر ما تكون السخونة ، وكانت الجذوع
تنثنى وتتايل وتصعد وتهبط وتتوقف وتتحرك وتعود إلى تكرار هذا كله ..
أحس المجدوب داخله بالسرور .. ما أعظم هيئته .. كلمة واحدة منه
تجمع كل هؤلاء الرجال .. وكلمة واحدة تفرقهم .. ازدهاه سلطانه
ولاحظ أنه يرقص معهم هو الآخر ، ولكنه رقص الكبراء .. يرقص
رقصًا هادئًا .. يقوم بالحركة الراقصة لكن بتعقل .. بهدوء .. مايسترو
كان ..

مايسترو عصاه هي جذعه .. وإشاراته هي رقبته .. وأى حركة
خفيفة منه تتضاعف إلى آلاف الأصوات من الآلات الموسيقية حوله ..
وتضاعدت صيحات الرجال وانعقدت حبات العرق على الجباه وبدا
واضحًا أنهم متعبون .. بذلوا جهدًا لو بذلوه في عمل حقيقي لغيروا
نصف العالم .. وأدرك أنه مسئول كقائد عن منحهم بعض الراحة ..
وأصدر صوتًا من فمه يقع بين الزئير والفحيح .. وعلى التوهداً الرجال ..
استمر الرقص لكن بهدوء .. وبدا واضحًا أنه يحركهم جميعًا بزملك ،
وتضاعف سروره من نفسه ..

كيف كان وكيف أصبح ..

رحم الله أيام زمان ، يسميها أيام الشقاوة ..

* * *

ارتفعت يده بالبلطة وهوت على رأس شيخ البلد ..

خبطة واحدة كانت هي القاضية .. بعدها اختفى من القرية ..
لم يكن قد قتله لغرض ، حاشا لله .. لم يكن بينه وبينه عداوة ، أبدًا ،
قتله جدعة .. توسط له بعض أصدقائه وكان لهم أصدقاء يعرفون واحدًا
يريدون التخلص منه .. وتخلص لهم منه ، لم يقبض مليمًا واحدًا في

العملية .. عرضوا عليه النقود فاستشواها ورفض .. وعاد يفكر في قتل من كلفه بالقتل .. ورتطوه بلا سبب ، لم تحم حوله شبهاً رجال الأمن لانتفاء مبرره في القتل ، غير أنه سمع في إحدى الغرز السوداء وهو يدخن الحشيش يوماً أن من كلفه بالقتل ينوي التبليغ عنه ، آه .. هذا جزاؤه إذن ، وانتظره في حقل القصب وهو عائد إلى داره ورفع الشومة وهوى على رأسه .. خبطة واحدة .. ليس هاوياً ليضرب مرتين .. وهى الخبطة ولا خبطة بعدها ..

وقرر الخروج بعد الجريمة الثانية ، اختفى من القرية وركب على ظهر القطار محطة ، وتحت بطنه محطتين ، ثم وصل أخيراً إلى القاهرة .. سأله نفسه أين يذهب .. وذهب إلى حى الحسين .. هذا الحى الذى يشغى بالناس : طاف بالحى ودرس طبيعته وعرف أين يجتبىء ، أطلق لحيته ووضع حول رقبته مسحة طولها فى طول ثلاثة رجال واشترى سماعة تليفون من وكالة البلح وعلقها فى ملابسه وسار ، ترك لحيته ورأسه ولم يعد يستحم ، طالت أظافره واتسخت وادعى أنه يكلم الجن ، تشع عيناه دهاء ويستحيل أن ينظر بهما لأحد فلا ترتعد فرائصه .

- حى ..

تعلم أن ينفض بها رثيته ويصرخ بها صرخة تفرع الكلاب فى خرابات القاهرة الفاطمية .. الناس فى مصر طيبون بغير جدال ، يقترب من السائرين فى الطريق ويمد يده .

- هات سيجارة .

فإذا أعطاه الرجل سيجارة نظر فيها وردها إليه .. لا يأخذ شيئاً من أحد ، يتأمل كل شىء ويرد كل شىء .. من أين تأكل يا شيخ .. يشير بيده إشارة غير مفهومة وبهمهم .. ماذا تشتغل يا شيخ . يضحك عن

أسنان صفراء مفرعة ، إلى أين تذهب ومن أين أنت قادم .. سأله السؤال مخبر ذكى شك فيه فنظر إلى المخبر وقال ذاهب إلى الجن وقادم من عندهم واترك طريق فإنهم يلحقون الأذى بكل من يتعرض لى .. حتى .. صرخ بها فجأة فى جوف الليل فارتعدت القلط فى الخرابة المجاورة وكانت تنام فى سلام ، أيقظتها صرخته فتواثبت حولها وفوجيء المخبر يجيش من القلط السوداء والصفراء والرمادية وهى تظهر فى الجو فجأة .. وانعكس ضوء المصباح الشاحب على عين قط أسود فرآه المخبر قاعاً من النار الحمراء فارتعد .. أحلى سبيله وأدرك أنه أمام مجذوب من المجاذيب .. أغلب الظن أن له علاقة بالجن .. وتحديث هو يوماً مع امرأة من مجاذيب الحسين فقالت إن عم ابراهيم تاجر القماش قد تزوج شابة صغيرة فربطه الجن ، واكتشف أنه بلا حول ولا قوة ، وقال المجذوب لو كان رجلاً طيباً وأنت تزكينه فما أسهل أن أكلم له رئيس جن البحار السبعة ، وكتب المجذوب ورقة كغمشة الفراخ فهو لم يكتب ولم يقرأ يوماً فى حياته ، وأعطى الورقة للمرأة وقال يضعها تحت رأسه وينام ولا يفرغه ما سوف يحدث فى الليل ، ما هو عنوانه .. هكذا سأل المجذوب ونام تاجر القماش فزاره ملك الجن شخصياً وهو يلتف بملاءة سوداء .. انتفض التاجر فى فراشه وجلس يرتعش .. ومدت الملاءة السوداء يدها ونزلت بها على صدغ التاجر بقلمين أقسم التاجر بعدها أنه تأكد أن من يضره جن ، فقد نزل القلم الأول على صدغه فرأى فى الحجر مليون نجمة بيضاء وحمراء وخضراء . ووسط الرعب المسيطر صرخ فيه الجن الأسود انهض لامرأتك يا تاجر التجار .. وانصرف الجن واغمى على التاجر .. لكنه ثانى يوم أقسم لكل من يعرفه أنه عاد طبيعياً كما كان ..

وطارت شهرة المجذوب فى الآفاق وقصده كل من يريد استخدام

الجن في شيء .. وكل عشر طلبات يرفض منها تسعة ويقبل طلباً واحداً .. أفهم الجميع أن الجن لا يشتغل على مزاج ابن آدم ، إنما يشتغل الجن على مزاج الجن .. لو كان له غرض فقد قضى الأمر ، وإذا لم يكن له غرض فلا أمل ولو دفع الطالب ألف مليون من الذهب .. وهو لا يشتغل بالنقود .. لا يأخذ أجرًا على عمله ، إنما يطلب أشياء غريبة ، خروفاً أسود فيه خصلة بيضاء ، أو خروفاً أبيض فيه خصلة سوداء ، فإذا كان مزاجه قد هفه على الفراخ طلب فرخة وحيهم في لونها ، غير أنهم يجدون دائماً ما يطلبه ويحضرونه فيرميه جانباً باحتقار وازدراء .. ماذا يفعل للناس إذا كان الناس حميراً ويصدقونه ..

لاحظ المجدوب أن الراقصين قد تباطأوا إلى الحد الذي لم يعودوا يرقصون فيه كما يجب .. وأصدر بغمه صوتاً يقع بين الزئير والفحيح فأسرعت الحركة .. زاد ميله إلى الأمام والحلف فزادوا من ميلهم إلى الأمام والحلف .. أسرع المايسترو .

جنت حركاته وحمى وطيس المعركة ..

وعاد هو إلى الهدوء وتركهم يسرعون . الشغل شغل والا فلا ...
لم يكسلوا يوماً واحداً في رمضان ويكسلون الآن ..
معقول ..

● الزوج الصائم

دخل المقهى هادىء الوجه جامد الملامح على
غير عاداته .. رد التحية بثناقل فسألته :

- لست على عادتك اليوم .. !

قال - روحى فى أنفى وليس بينا وبين الخروج
غير شعرة .

قلت - ألف بعد الشر .. حدثنا عما وقع
واستوجب صعود روحك لأنفك .

قال - خرجت من البيت .. اندلعت المعركة بينى وبين زوجتى ،
وهى معركة طويلة ومريرة ، وهى أيضاً معركة مصيرية ، إما أنا وإما
هى ..

بدأ حديثه هادئاً ثم اهتاج قليلاً وهو يتقدم فيه ، حتى إذا بلغ نهاية
الجملة كان وجهه ممتعماً ويداه ترتعشان ..

قال صديقى مصطفى بك :

« عدت فى الساعة الرابعة إلا ثلث إلى البيت .. صائم ومدروخ

وخرمان ، المفروض أن تراعى زوجتي مشاعري كإنسان .. بلاش
كإنسان .. كحيوان يدور لها في الساقية ليحضر النقود .. المهم أنني
خلعت ملابسي وسألت هل أعد طعام الإفطار فقالت كنت سأبدأ
إعداده ... عظيم جداً .. سأطبخ أنا بنفسى طعام الإفطار .. !!

ينبغي أن أقاطع صديقي لأقول للقارىء إن مصطفي بك هو أعظم
طباخ على سطح الكرة الأرضية ، وقد كان يحدثنا ونحن عزاب أن
الطبخ نفس (بفتح النون والفاء وتسكين السين) كما أنه نظافة ، أهم
شيء في الطهي هو النظافة .. وكان إذا انتهى من طهيها وانكشف عن
الحلة غطاءها ، وتصاعدت رائحة المسك الأذفر ، أدركت سر استحقاقه
للقبه .. قال صديقي مصطفي :

قررت أن أطبخ بنفسى طعام الإفطار .. أهم شيء في الطهي هو
النظافة ، أمسكت الحلة ودسست فيها أنفي فشمنت لها رائحة هي نفس
رائحة الطعام القديم الذي كان فيها قبل ذلك .. قلت لزوجتي - الحلة
زفرة .. إذا سمحت اغسليها .. هل أخطأت .. ؟

قلت له - أبداً .. أكمل لنا الموضوع

قال - غسلتها فحدثني هاتف داخلي أن أعود لشم الحلة فشمنتها
فرايت لها نفس الرائحة ، قلت لها اغسلي الحلة . قالت غسلتها . قلت
اغسليها كمان مرة . وغسلتها مرة أخرى فشمنتها عامداً متعمداً فرايت أن
الرائحة لم تغادرها ، وسألت زوجتي أليس عندك سلك لغسيل
الألومونيا .. قالت عندي ، قلت هل فكرت في تجربته وغسل الحلة
به ، قالت لا .. قلت لها اغسليها بالسلك قالت عمرى ما رأيت أحداً
يشم الحلال غير القطط .. يشمون كل شيء بأنوفهم ، تجاهلت تعريضها
بي على أساس أنها صائمة ولا تدرى ماذا تقول ، غسلت الحلة بالسلك

فإذا بالرائحة قد زالت .. قلت لها كانت الرائحة لاصقة بقعر الحلة
وجدرانها ، كانت طبقة من الإهمال قد ترسبت فوق طبقة ، ولا يزيلها
إلا السلك .. قالت : أنا مزكومة ولا أشم مثلك .. قلت لها الحلة بهذا
الشكل منذ عشر سنوات ، فهل أنتِ مزكومة منذ عشر سنوات ..
قالت : لو كنت تهتم بي ربيع اهتمامك بالحلة لصرت أسعد زوجة في
العالم ، تجاهلت ملحوظتها الأخيرة وانتهيت من وضع الطعام على النار ،
ودخلت غرفتي ، رأيت يرقد على الفراش .. أحسست بالسعادة لمدة
ثانيتين .. هذا هو البلوفر الذى تصلحه زوجتى ، أصلحته مرتين وما هى
تصلحه للمرة الثالثة .. داخلنى بعض الاطمئنان وخلعت الجاكته
وارتديت البلوفر ووقفت أمام المرأة .. كان حرف السبعة فيه معوجاً
ناحية الشمال .. لم تكن فتحة البلوفر مثل حرف السبعة ، كانت مثل
حرف الستة .. ناديت زوجتى فجاءت .. قلت لها لم تزل الفتحة معوجة
كما كانت .. قالت بإصرار - بالعكس .. لقد اعتدلت .. قلت بحسم :
الفتحة معوجة .. قالت بتحد : بل معدولة .. لأ معوجة .. لأ
معدولة .. فقدت أعصابى وصرخت فيها الفتحة معوجة .. كشرت
بوجهها وأصرت أنها معدولة .. وأنها لا تستطيع أن تشعل أصابعها العشر
كالشمع من أجلى ، لم أفهم ما العلاقة بين الشمع والأصابع وفتحة
البلوفر .. قلت لها أنا غلطان .. هلى تحبين أن نقوم بتحكيم أحد فى
الموضوع .. قالت إنى حر .. قلت لها أى حكم تنزلين على حكمه .. هل
نادى أحداً من الجيران .. أو من الشارع .. فقدت أعصابى وجريت نحو
الشباك ، تعرف أن بيتنا يقع فى الدور الأرضى ، وجدت بنت زكى
أفندى تلعب فى الشارع ، طفلة عمرها تسع سنوات ، ناديت عليها -
بت يا سعاد .. خدى يا بت .. وجاءت البنت قلت لزوجتى هى ترضين
بحكمها ، قالت تصرف كما تحب وافضحنا وجرسنا كما تشاء . قلت لسعاد

فتحة البلوفر دى معوجة ولا معدولة يا سعاد .. ؟ قالت سعاد معوجة يا عمى قلت لها معوجة ناحية اليمين والا ناحية الشمال يا سعاد .. ؟ قالت ناحية الشمال يا عمى . صرخت فى زوجتى هل يرضيك هذا الحكم .. هذه واحدة لا غرض لها ولا مصلحة فى مما لأتى .. قالت زوجتى الفتحة معدولة ولن أصلحها بعد ذلك أبداً ، اجرى العبي يا سعاد .. قلت إذن أمزقه قطعاً مادمت لن تصلحيه .. جريت نحو المقص وأحضرتة ، وخلعت البلوفر وقررت أن أقصه قطعاً صغيرة .. هجمت زوجتى على المقص وخطفته من يدي وألقت به من النافذة إلى الشارع . قلت أحرقة مادمت لن أقصه ، ودلقت عليه السبرتو وأسرت نحو علبه الكبريت فألقت زوجتى بالسبرتاية وعلبة الكبريت فى الشارع .. اختطفت البلوفر وقلت أضعه على البوتاجاز بدل حلة الطعام ورفعت الحلة فقالت زوجتى وهى تنفجر فى البكاء سأضع نفسى معه على البوتاجاز .. إياك أن تحرقه .. وراحت ترفع صوتها فى البكاء حتى حضرت جارتنا عفت ، وطوال هذا الوقت كان البلوفر موضع شد وجذب بيننا ، أحياناً ينتقل إلى يدي وأحياناً ينتقل إلى يدها ، وكان حرف السبعة قد تحول من حرف ستة إلى خمسة ، أخيراً حضرت عفت ، وهى امرأة تساوى ثقلها ذهباً ، من الإسكندرية جاءت ، أصلها بنت أصل ومرتبة ، هى حكيمة ومعقدة من الرجال لكنها أنثى بحق ، كان عندهم فى بيتهم فى الإسكندرية بئر .. بنت أصل كما حدثك . جاءت على صوت العراك فحسمته بكلمتين .. قالت زوجك معه حق . البلوفر معوج ناحية الشمال ، وقد أخطأت فيه ثلاثة أخطأ . ثم أنشأت تتحدث حديثاً فنيا عن الغرز والكشكشة وطريقة صنع الحرف ، واستمعت زوجتى إليها بهدوء ، استمعت أنا الآخر بهدوء وسعادة ، كان حديثها ساحراً ، وكانت عيناها تلمعان وكانت أصابع

يدها شديدة الرقة .. كانت تبتسم .. هل تصدق أنني لم أر زوجي وهي تبتسم قط .. تزوجتها منذ عشر سنوات فلم تبتسم فيهم ابتسامة واحدة ، تنام وهي مكشرة ، وتستيقظ مكشرة ، تصور امرأة تستيقظ وقد انعقد وجهها في تكشيرة تظل عليها طيلة النهار . أليست هذه مأساة .. انصرفت عفت بعد أن فكت بنفسها فتحة البلوفر ، وأفهمت زوجتي كيف تصلحه وبأى أسلوب ، شيعتها إلى باب الشقة وأنا أشكرها بحرارة وصدق ، وتأملت قوامها المشوق وهي تصعد السلم في طريقها إلى شقتها ، وقلت اللهم إني صائم ودخلت إلى البيت .. وجدت تكشيرتي أو زوجتي بمعنى أصح تجلس أمام البلوفر . قلت لها أصلحيه ، قالت هي التي فكته ولن أصلحه أنا .. اندلعت المعركة مرة ثانية .. كان موضوع المعركة مزدوجاً هذه المرة .. البلوفر وعفت .. قلت لها صديقتك إنسانة ورقيقة وماهرة .. لماذا أنت خائبة وعنيدة ومقاوحة ، قالت ظفري برقبته وهي تلميذتي وأنا التي علمتها شغل التريكو ، قلت لها سبقتك تلميذتك لأن الحياة تتطور وأنت واقفة في مكانك . صرخت في وجهي فصرخت في وجهها . كشرت فكشرت . زامت فزأرت .. اقترب وجهانا وبدأ الاشتباك . وأسرع أحد عيالي إلى أخي الأكبر وهو يسكن قريباً منا واستدعاه .. لا أعرف ماذا قال له غير أنني فوجئت به يدخل البيت وهو يرتدى الجلباب ويمسك عصاه وقد سلطح طاقيته إلى الورا كما لو كان خارجاً من الدوار .. سألتني ماذا حدث فحدثته . قال أنت مخطيء وهي على حق .. قلت له وأنا أشير للون الحائط الأجرى – أقول لها هذا لون أصفر فتقول أحمر .. قال أخي الأكبر متفلسفاً : عظيم جداً .. هو لون أحمر فعلاً .. انهلت على الحائط خبطاً بيدي وأنا أصرخ هذا لون أصفر وليس أحمر .. قال أخي بعد أن أوجعتني يدي .. هو في نظرك أصفر وفي نظرها أحمر .. زوجتك تمرد عليك كأي زوجة ، وعلى الرجل

الحكيم أن يسمح بهذا التمرد .. قلت وقد ازددت هياجاً إن أى تمرد فى هذا البيت سوف يجمع بيد من حديد ، قال هدىء نفسك وقل اللهم إنى صائم ولا تدع الشيطان يفسد عليك صومك ، قلت له ١ + ٢ يساواوا كام .. قال ٤ قلت له اسأل زوجتى ستقول لك خمسة . قال أحياناً تصبح خمسة ، وأحياناً عشرين .. الدنيا نسبية وليس منطق الرجال كمنطق المرأة وأنت زوج وعاقل وصائم .. حدثته عن موضوع الحلة التى تركتها بزفارتها فقال معك حق فى موضوع الحلة ، هذه حقوقك الشرعية كزوج ، أما البلوفر فقد أثرت ضجة بلا معنى .. فرستنى كلماته فسكت .

سكت صديقى فجأة كما بدأ .. قلت له لم تكمل حديث المعركة .. ماذا فعلت زوجتك .. قال أضريت عن تناول طعام الإفطار .

قلت له وكيف تصرفت أنت .

قال : بعد أن أفطرت ظللت جالساً وعينى على المطبخ لكى لا تتسلل إليه وتنهى إضرابها .. ثم سئمت كل شىء فخرجت .. لن أعود إلى البيت مهما حدث . لقد طفح الكأس وانتهى احتمالى قلت له .. بصفتك مصريا ينبغى أن تحتمل ، هذه عبقرية مصر الأولى .. القدرة على الاحتمال .. إن زوجتك لا تفهمك رغم أنها تحبك ، وأنت ظالم قليلاً لأن فتحة البلوفر المعوجة تثريك كل هذه الثورة ، بينما تمتلىء حياتنا بآلاف الأشياء المعوجة التى نمر عليها مرور النسيم .. اهدأ وقل لى أى شىء تحب أن تشرب .. شايًا أم قهوة .. جنزيبلاً أم قرفة .. !؟

● الزوجة الصائفة

مصرية أنا ..

زوجة مصرية ..

لست في حاجة لمزيد من الشرح لأحكي عن
الطريقة التي مال بها بنحى وساء حظى .. يكنى أنى

زوجة .. ويكنى أنى مصرية ..

وزوجة من .. زوجة مصطفى بك شخصيا

ومصطفى بك هو الممثل الشخصى للحلقة الأخيرة في سلسلة بكوات
العصر القديم .. ورغم إلغاء البكوية وذهاب عصرها الغابر ، ورغم
تحول الباشوات إلى أفندية ، وتدهور حالهم وتواضعهم ، رغم هذا
تحول زوجى إلى البكوية بعد إلغائها ..

قال له أحد أصدقائه يوماً مصطفى بك أنت عظيم .. شكلك هكذا
عظيم .. فيك من عظمة اللوردات شيء ، ومن هيبة السلاطين شيء ،
ولك من وقار الزعماء والقادة شيء ..

من يومها صدق مصطفى .. وكان هذا الصديق يرسم كل هذه الرسمة من أجل أن يقترض منه خمسة جنيهات في آخر السهرة ، وألقى الطعم لزوجي في البداية .. وفي نهاية الجلسة مال عليه وهمس له : هل أجد معك خمسة جنيهات ..

وعز على اللورد والسلطان والقائد أن يقول ليس معي غيرها .. فأعطاهما لصديقه اللثيم وبتنا نحن في البيت وليس معنا مليم ..

أحياناً أعتقد أن زوجي في براءة الأطفال ، وأحياناً أتصور أنه شديد الخبث ، ويبدو لي أحياناً أنه لا يدري ماذا يفعل ، وأحياناً ينجيل إلى أنه يدمر نفسه ويدمرنا معه .. وعلى أى حال فهو دائم القلب دائم التغير لا يكاد يثبت على حال أو يقر له قرار . يعتقد زوجي أن الجنس البشرى قد خلق لخدمته ، وهو يراني رمزاً لهذا الجنس البشرى المفروض أن يقوم بخدمته ، والحقيقة أن زوجي قد ولد في القرن العشرين خطأ .

كان المفروض أن يولد في عصر هارون الرشيد .. بشرط أن يكون هو هارون الرشيد شخصياً .. وبذلك تكون له ألف جاربية يخدمته ، وألف جاربية يلاعبه ، وألف جاربية يطبخن له ، وألف جاربية يقمن بتنظيف الحلل بالسلك .. وألف جاربية يقفن بين يديه إذا طلب شيئاً أو احتاج لشيء ..

ولأن هارون الرشيد رجل مشغول وفي ذهنة مملكة كاملة ، فهو لا يكاد يخرج من البيت حتى ينسى زوجته وعياله .. يعتقد زوجي أنه لم يزل شاباً طائشاً صغير السن ، أو هو يجب أن يقنع نفسه بذلك رغم عبوره الأربعين .. وهو فقير يعيش كالأغنياء ، وكان المفروض أن تكون عنده الآن عزة أو عزبتين على أقل تقدير .. ومن يراه خارجاً من البيت يتصور أن السيارة تنتظره مع السائق خارج البيت ، لا يتصور أحد أننا

بفضل تصرفاته الخرقاء والحمقاء نكاد نشحد ونمد أيدينا لمن يساوى ومن لا يساوى .

يقول مصطفى بك .. اطبخى يا جارية .. وهنا أذكره بالمثل العامى الذى يقول « اطبخى يا جارية قالت كلف يا سيدى » ..

البكوات وحدهم هم الذين ينسون هذا المثل العامى .. إنهم يطالبون بكل شيء ، فإذا نهتهم إلى الدفع والتكاليف زوى الواحد منهم ما بين حاجبيه وأزاح رأسه إلى الوراء وأحس أنه أهين .. وزوجى يعتبر مجرد الكلام فى النقود إهانة .. وهى إهانة لا يحوها إلا الشخط والنظر .. ويزيد الأمر سوءاً نرفزة الصيام .. وأحياناً يصبح الصيام ستاراً يخفى وراءه هوى فى النفس ورغبات مستكنة ..

موضوع الحلة التى غسلت بالسلك كانت مقدمة لموضوع البلوفر ، وكان البلوفر حجة مكشوفة لتحضر الجارة .. ادعى زوجى أن الحلة ليست نظيفة وهى مثل الفل ، وادعى زوجى أن فتحة البلوفر معوجة وهى معدولة .. وهما صراخ وثار وشخط ونظر ورفع صوته لتحضر الجارة .. أنا أفهمها وهى طائفة .. لست ساذجة رغم أنى اكتشفت فى كل مرة أنى أكثر ساذجة مما توقعت ، والحقيقة أن حيل الرجال لا تنفذ .. والأعييب بلا نهاية .. ولست أعرف أسلوباً أعامل به زوجى رغم أنى أخدمه خدمة العبد للسيد ..

هى ميلة بنجت ولا حيلة لى فى ذلك ..

كانت الساعة الرابعة إلا الثلث حين دخل زوجى من الباب ..

وجهه مقطب ، ولونه مخطوف من الصيام ، وشفته يضاوان ، والعفاريت تنتظط أمام عينيه . أدركت أنه منفرق فقلت أداويه والحكمة أولى وأجدى بدلاً من العنف ..

جلس في حجرته فذهبت إليه وقلت :
- حمد الله عالسلامة .. إزى حالك ..

قال وهو مقطب : زى الزفت ..

قلت متضحكة : بعد الشر عليك من الزفت .. أنا عملت لك
البلوفر .. صلحته ..

تجاهل كفاحي واجهاد بصرى من أجله وقال : طابخه إيه النهارده ..
قلت له إن كل شيء معد وجاهز وسأضع اللحمه على النار بعد
دقائق لكى يأكلها ساخنة .. قال أضعها أنا على النار .. ونهض ودخل
المطبخ .. وأنا أتشاءم كثيراً حين يدخل زوجى المطبخ .. لا أذكر أنه
دخل المطبخ يوماً إلا ونشبت بيننا خناقة .. إنه يمد يده إلى الحلل ..
يشمها ويقليها ويبحث فيها عن القطط الفطساء وهو يزبح بيده
البوتاجاز ، ويقول انظري ما تراكم تحته من قذاره ، ويتدخل في كل
شيء ، ويدس أنفه في كل شيء ، ولا يفهم أى اعتذار أو مبررات ..
لماذا يتدخل هو في صميم عملي ولا يحتمل مجرد احتمال أن يقترب أحد
من عمله هو .. بدأت المعركة في المطبخ ثم امتدت إلى الصالة وكان
سببها حلة يصر على أن لها رائحة بينا هى نظيفة وكالفل .. لست أعرف
من الذى أقنع زوجى أنه أعظم من يطهو الطعام في العالم .. أحد
أصدقائه خدعه وأفهمه طاه ماهر بينا هو في الحقيقة لا يعرف من
الطهي غير الإمارة والإدارة والتحكم ..

أعتقد أن زوجى طاغية .. ديكتاتور صغير ، ومأساة أى ديكتاتور
أنه لا يرى من كل وجهات النظر الموجودة في العالم غير وجهة نظره هو
فقط .. وهو يندهش كثيراً حين يسمع رأياً مخالفاً ، ولا يريد من الناس
غير التأييد والتصفيق .. يقول إن الشمس تشرق من الغرب وينتظر أن

تهنئه على اكتشافه وتلغى عقلك .. ومثل أى ديكتاتور تتسم تصرفات زوجى بالتلقائية والعفوية وردود الفعل المرتجلة التى توقعنا فى أشد المصائب والكوارث . إن كلمة التخطيط بلا مدلول فى حياته .. لا معنى لها على الإطلاق .. إنه يتصرف نتيجة تصرف الآخرين معه .. ويستطيع الآخرون أن يدفعوه لأعظم التصرفات إهلاكاً له وتدميراً لو عرفوا كيف يضغطون زناده .. يقبض مرتبه ويخرج لأصدقائه .. ولست أعرف ما هى الموهبة التى يملكها أصدقاؤه ولا أملكها أنا التى يستطيعون بمقتضاها تجريده من نقوده .. وهو ينفق نقوده عليهم ويعود راضياً سعيداً .. أما أنا ، فمجرد طلب صغير منه يثيره ويوقعه فى الغضب ويدعوه إلى التهمك ويدفعه إلى المناورة والاحتجاج بأننى أستنزفه ، وأنه لن يستطيع الاستمرار فى حرب الاستنزاف إلى الأبد .

ارتدى زوجى البلوفر وقال إنه فتحته معوجة قليلاً ناحية الشمال .. ونظرت إلى البلوفر فرأيت أنه معدول ، وتذكرت سهرى فيه ثلاث ليال طويلة .. كيف فككته وأعدت صنعه من جديد ، كيف جلست تحت ضوء مصباح شاحب أنسج فيه حتى كاد بصرى يذهب بسببه ، ثم يجيئ رد الفعل منه قاسياً هذه القسوة بدل أن يقول لى أشكرك أو ربنا يخليكى ليه أو مرسى ..

لم أقل له غير أن فتحة البلوفر معدولة .. وكأن كلمتى كانت صفيحة من الجاز ألقىت على بابور مشتعل .. اندلعت النار فجأة داخله وثار .. جرى إلى الشباك واستدعى بنتاً صغيرة ليسألها عن فتحة البلوفر وفضحنا أمامها .. وعاد يصيح ويصرخ ويقسم أنه سيمزق البلوفر وسيحرقه وسيضعه على البوتاجاز .. وكان يجرى من حجرة النوم إلى المطبخ ومن المطبخ إلى حجرة النوم ومن حجرة النوم إلى الشباك وينظر من الشباك ويجأ بصوته حتى تصورت أن زوجى قد جن ..

إذا كان هذا هو الصيام فأعتقد أن الله لن يقبل منه صيامه ..
المفروض أن يصير الإنسان أكثر رقة في الصيام .. أما أن يتحول إلى
وحش هائج ساعة الصيام فهذا ما لا أفهمه ..
المهم أن كل تصرفات زوجي كانت مجرد إشارة أو «سيم» لكي تحضر
جارتنا عفت .. وقد حضرت على الضجيج ..

لم تكذ عفت تدخل من باب البيت حتى تحول البركان الثائر إلى
زهرة مسالمة ، وانقلب الوحش الهائج إلى قط يتمسح في الأقدام ..
المنخفض صوته .. وارتاحت نبراته ، وتوقف ارتعاش يديه ، وبعد نظرة
الجنون الحمقاء التي كانت تطل من عينيه ، أطلت نظرات هادئة رقيقة
حانية .

قال لها وهو يمد إليها يديه معاً : أهلاً وسهلاً .. أهلاً ..
وخفضت هي بصرها حياء أو ادعاء للحياء وقالت : أهلاً :
قال لها وهو يقدم إليها كرسيًا لتجلس : فين من زمان .. حضرتك
وحشتينا خالص ..

وكان يقول لها حضرتك .. وكان يلفظها برقة أدهشني أن تصدر من
زوجي .. جلست وهي تغمغم بكلمات لم أسمعها ، وأضاء وجه زوجي ،
والمخني عليها ، وراح يعتذر لها ويأسف على إزعاجها ، ويحدثها عن شوقه
إليها ، ويسألها عن حالها ومزاجها ويضئ وجهه كلما حمدت هي الله ..
ثم تطرق زوجي إلى الموضوع فقال إننا - يعني أنا وهو - قد اختلفنا
اختلافًا بسيطًا مبعثه عدم فهمي أنا .. صرت أنا المتهمة بعدم فهمه ،
وأحضر البلوفر وأمسكه وعوجه بيده وأشار لها على الفتحة وقال لها إن
الفتحة معوجة كما ترين .. وأنشأ كل واحد فيها يضحك طويلاً كما لو
كانا يتحدثان في موضوع فكاهي .. واقتربت أيديهما وتلامست ، وارتفع

وجهاهما ، وتلاقت النظرات ، وابتسمت العيون ، وبدا واضحاً أنني
أشهد جزءاً من فيلم سينائي .. مشهد حب في فيلم .. وأحسست
بالاختناق والغضب والثورة ..

كان هذا الهدوء الصامت والإعجاب الغامض والرقعة المتناهية تقع
أمام بصري كما لو كنت حائطاً أو كرسياً .. يحدث هذا في شهر
رمضان .. جنت ..

قالت جارتنا : الفتحة معوجة ناحية اليسار ..

نفس الكلمات التي قالها زوجي ، ترددها-هي بلا وعي .. لم أرد
عليها واختنقت بشيء يشبه الدموع .. أمسكت الجارة البلوفر الذي
سهرت فيه ثلاث ليال كاملة وبدأت تفكه وتحذثني عن عيوبه وعن
الكشكشة والغلط ..

تحذثني أنا ..

أغرقتني موجة هائلة من الغضب .. لم أستطع أن أرد عليها .. كنت
أريد أن أهبطها معاً ولكنني سكت .. وانصرفت الجارة فإذا به يصحبها
إلى الباب ، ويودعها بتحيات الشكر ، ويعتذر لها عن الازعاج ،
ويضيف أنها كانت فرصة طيبة أن رآها واطمأن على حالها .. ثم وقف
معها عند الباب حتى اختفت في السلم .. وعاد يدخل البيت ..

لم يكده يعود إلى البيت حتى عاد وجهه إلى تجهمه وقسوته وغبائه ..
وانتظرت أن يقول لي كلمة اعتذار فإذا به يقارنني بها .. وانفجرت في
البكاء ..

مال بجنتي والشكوى لغير الله مدلة .

، ميلة بجنت ولا شك .. 11

● المدرس

قال له الصوت الداخلى :

لست مغنياً .. ولا وزيراً .. ولا مؤلفاً ..
ولا رئيس مجلس إدارة .. ولا تاجر قطع غيار
ولا صاحب أسطول للنقل .. ولا مالكاً لمصنع
طوب .. ولا وارث عمارة .. ولا تاجر أدوات
صحية .. ولا معلماً فى المديح .. !! لست غنياً ..
أنت أفضل من هذا كله ألف مرة .. أنت
مدرس .. !!

ضحك سخرية من الصوت الداخلى وقال - لست رائقاً لسخريتك
اليوم .. رأسى مصدع وقلبي مثقل وروحي ترزح تحت أهرام ثلاثة من
الأسى والهلم والكآبة ..

عاد الصوت الداخلى يقول :

كان آدم أول مدرس على ظهر الأرض .. أول من أنبأ الملائكة
بأسماء ما لا تعرفه .. أول من علم أبناءه .. أول مدرس باختصار .. من

هنا تستمد مهنة التدريس ماها من شرف .. ليس لمهنة في الدنيا ما لمهنة
المدرس من الشرف . هو وحده المسئول عن المستقبل . يستطيع المدرس
أن يخلق جيلاً عظيماً يغير شكل الحياة ، ويستطيع أن يخلق جيلاً خائراً
تزيد فيه جرائم الرشوة والاختلاس والحيانة الزوجية ..

المدرس هو المسئول عن هذا أو ذلك .. في جدران المدرسة يصنع
الغد .. أعرف أن أحداً لا يعطيك فرصتك في صناعة الغد .. أعرف
ذلك .. ولكنني أريد أن تعرف في البداية قيمتك وقدرتك .. وسيجيء
عليك يوم تدرك فيه دورك وتؤديه .

المسألة مسألة وقت .

* * *

أحس بانقباضة مفاجئة وهو يدخل من باب المدرسة ..

توقف لحظة عند إحساسه الغريب الذي يتزايد يوماً بعد يوم ،
وساءل نفسه إذا كان مدرساً ومحس بالانقباض ، فإذا يكون إحساس
التلاميذ .. كأنه يدخل سجنًا .. اكتسح البناء المعماري للمدرسة ببصره
وأدرك مصدر انقباضه .. ليس للمدرسة المصرية حتى اليوم بناء متميز ..
هي أقرب ما تكون شبهاً بالسجون القديمة ، أو اصطبلات خيول
الأمراء والمالكيك ، أو قصور التجار في القرون الوسطى . حوش واسع
فيه تمثال من الجبس ، وفصول مرصوفة على الجانبين ، فصول كثيفة
ومرات أشد كآبة ، وملصقات ملونة وبدائية وفجّه .. وكل ما من شأنه
أن يعلم الأولاد سوء الذوق والمبالغة وسوء اختيار الألوان .. ثم تحت بنية
كثيفة وسبورة سوداء ومدرس متعب منهمك مكدود وعصا ومناهج تتغير
كل عام إلى ما تظنه الأحسن .

دق جرس الحصة الأولى ودخل الخراف الصغار إلى حظائرهم

ليشربوا بملعقة الدواء أول درس من دروس الصباح . جرس المدرسة انكسرت يده فعلقوا مكانها حبلاً صغيراً يرمز لنواحي القصور والتراخي والإهمال في حياتنا .. حتى إذا كبر الأولاد وفسدت حنفيه في بيت أحدهم ربطها بجبل بدل أن يصلحها كما علموه في المدرسة .. دخل المدرس الفصل ومسح السبورة بقطعة من القماش تشبه قطعة الحلل التي تستخدمها زوجته في المطبخ .. كتب بطباشير ردىء يصر صريراً مزعجاً على السبورة اسم الدرس والتفت إلى الأولاد وفتح فمه وبدأ ..

المطر والسحاب والسافانا والتضاريس والأخشاب والمحاصيل والتصدير والاستيراد ..

توقف فجأة عن الدرس ونظر في وجوه الأولاد فرآهم جميعاً يحدقون فيه ببلاده .. أشار لأحدهم أن يقف فوقف .. سأله هل يفهم ما يقوله فهز الولد رأسه أنه يفهم ..

قال المدرس للتلميذ - أنت تكذب .. إذا كنت أنا نفسى لا أفهم ما أقوله ..

انفجر الفصل يضحك .. أمر المدرس التلميذ أن يجلس وقال للأولاد :

- لماذا لا تضحكون .. أنتم أطفال ومن حقكم أن تضحكوا دائماً ، لماذا لا تبتمون .. هل أنتم شيوخ أم أطفال .. نستطيع الآن أن نعيد الشرح من بدايته ..

عاود الشرح وهو يحس أنهم شيوخ وليسوا أطفالاً .. أصغرهم مثل أكبرهم ترتسم على وجهه تجاعيد هم غامض مجهول كأنما يتنفسه من الهواء أو يحتسيه احتساء مع الماء ..

كان يشرح لهم درساً من دروس الجغرافيا يعرف أنه يستحيل أن

يفهم بغير صورة .. يعرف أنهم في الدول المتقدمة يدرسون الجغرافيا بالرحلات والسينما والتليفزيون .. وبدلاً من أن ينبج المدرس حسه في شرح السافانا يستطيع أن يدير جهاز السينما ويقول للأولاد هذه هي السافانا ..

أى يؤس أن يظل أسلوب التدريس هو أسلوب القرون الوسطى .. لا أمل في أى شيء طالما بقيت المدرسة على حالها .. ليست المشكلة مشكلة تطوير المناهج بحيث تصير أصعب وسكب المعلومات في رءوس الأولاد ليسكبوها بدورهم في أوراق الامتحان فإذا جاءت الاجازة الصيفية انزلق ما تعلموه من رءوسهم كما ينزلق الزئبق .. المشكلة تكمن أولاً في أن تكون المدرسة مكاناً يحبه التلاميذ .. ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك ماذا نريد أن نعلم التلاميذ .. هل نريد حشور رءوسهم بمعلومات لا قيمة لها .. أم أن المشكلة أن نثير داخلهم الرغبة في أن تصير الحياة أجمل .. أن نثير داخلهم هذه الرغبة في إنجاز شيء في الحياة .

انتزع المدرس نفسه من أفكاره وعاود الشرح ..

راح يتأمل وجوه الأولاد ويحس بالفقر ..

يعرف أن الفقر ليس مفهوماً بسيطاً .. ليس مجرد عدم وجود ثروة .. إنما هو تركيب معقد من الظروف التي تلد ظروفاً تؤدي إلى الضعف وكل منها يدعم الآخر إلى أن يزيد التفاف الحبل حول عنق الطموح والأمل وتشقى الإنسانية أعظم ما فيها .. وتصاب بعدها بالهزال ..

أوقف المدرس شرحه وسأل الأولاد .

- ما هي آخر مرة ذهبتُم فيها إلى حديقة ..

اكتشف أن ثلث الفصل لم يذهب إلى حديقة منذ أن ولد .. أما ثلث الفصل فذهب إلى حديقة الحيوان منذ ثلاثة أشهر ، أما ثلث

القصل الباقي فقد اعتبر أن كورنيش النيل هو الحديقة الأسفلتية بسبب هذا الزيت الأخضر الذى نسيته الحكومة فيها .

ونظر المدرس فى وجوه الأولاد وأدرك أنهم لم يشموا هواء نقيا من شهور . يعيشون فى مدينة تسقط عليها أسرع معدلات أتربة فى العالم كله . مدينة بغير رثة .. مدينة حطمها غباء داهم مفاجيء ، انتزعوا الأشجار منها فى البداية ، ثم راح الزيت يزحف على الحدائق ونشب بينها الصراع وانتصر الزيت وفقدت القاهرة رثتها . كيف يمكن لتلميذ لا يشم هواء نقيا أن يفهم درساً .. أى درس .. إن المعلم ليس هو الذى يعلم على الإطلاق .. إنه الطالب الذى يعلم نفسه ، إن اكويناس فى القرن الثالث عشر وأرسطو الذى عاش قبله بألف وخمسمائة عام قالوا إن المعلم لا يمكنه بالمعنى الدقيق أن يكون سبب معرفة الطالب .. بل هو مجرد المناسبة لها .. ولكى يكون المعلم مناسبة ملهمة وموحية لمعرفة تلاميذه .. ينبغى أن تكون هناك آلاف الأشياء الأخرى ..

حدائق وملاعب وأجهزة وطعام وشراب وأحذية وملابس وسينما وتلفزيون وشرفات وشمس .. ملاعب واسعة وشمس . باختصار .. ينبغى أن يكون هناك نظام آخر مختلف .. نظام جاد يتمثل فى مزيد من الخضرة واللعب والحرية ، وإلا فلا معنى لتخريج هذا العدد الهائل الذى كان دوداً محشوراً فى شقوق متربة ثم صار دوداً محشوراً فى شقوق أوسع .. وفى الدول المتقدمة نجد المدرسة تعلم التلميذ قيمة عامة تتمثل فى الرغبة فى «إنجاز» شىء فى الحياة ، وهى قيمة يستحيل غيرها أن تتقدم أمة ، ولكنها قيمة غريبة تمام الغرابة وسط البيئات الفقيرة .. فى عالم الفقراء لا يعتبر الإنجاز بمثابة قيمة من القيم بسيط ، لأنه لا يوجد كاحتمال واقعى فى الحياة .. إنما تنبت بدله قيمة أخرى . هى قيمة الوظيفة .. الحصول على وظيفة من الوظائف .. أى وظيفة بأى شكل ..

بأى أسلوب .. المهم وظيفة .

انتزع المدرس نفسه من تأملاته وعاد يشرح .. بعد دقائق أحس أن الفصل كله قد سقط منه في بئر الكآبة واللامبالاه .. توقف عن الشرح وقال للأولاد :

- اسمعوا يا اولاد .. واضح أن نفوسكم مصدودة عن سماع حصة الجغرافيا .. وأنا أعرف أن معكم حقا ، ما رأيكم في تحويل الحصة إلى مجموعة من الحوادث .. هيه ..

زاط الفصل وهاص التلاميذ ولعت العيون وانتعشت الملامح وأنصت الجميع .

وقال المدرس بعد أن قفز جالساً على منضدته وربع أقدامه ..

كان ياما كان .. في قديم الزمان .. وسالف العصر والأوان .. أميرة جميلة اسمها ست الحسن .. وفي نفس المدينة التي عاشت فيها عاش شاطر اسمه الشاطر حسن .. وخرج الشاطر حسن ذات يوم .. وكان اليوم عيداً .. وخرجت ست الحسن وهي متنكرة في ثياب الفقراء .. كانت ست الحسن امرأة نبيلة وكريمة .. ولهذا كانت أميرة رغم كونها ترتدى ملابس الفقراء .. المهم في هذه الدنيا هو النبل والكرم .. الملابس كلام فارغ .. (لم ينظر المدرس لياقة جاكته المنحولة ولكنه قالها بحرقه ..) الملابس كلام فارغ .. ليست مهمة .

تأمل التلاميذ ملابسهم وأحسوا بالسعادة ، وعادوا يتأملون شفاه المدرس وهي تحكى ..

التفت حوله القلوب للمرة الأولى بحب وراحت تستمع .. ومضى المدرس في الحدوتة ..

● الطفل

سمعت أبي يقول لأُمِّي :

- هذا الولد مجنون ، تسع سنوات ويريد أن يصوم ، سيموت لو صام .

أردت أن أصرخ فيه من حجرتي إنني سأموت إذا أفطرت ولكنني لم أصرخ . كان المفروض أنني نائم منذ ساعة ، ولم أكن نائمًا .

ما أفسى عالم الكبار .. إنهم يصدرون أحكامًا على كل شيء ، وغالبًا تكون هذه الأحكام خاطئة ، غير أنهم لا يتراجعون فيها .. هل يجهل أبي أن الله مادام قد أمرني بالصوم فهذا معناه أنني يمكن أن أصوم .. إن الله يقول : «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» . ما معنى أن أفطر إذن .. هل أنا غير مؤمن ..

لست أفهم حكاية الصغار والكبار في موضوع خطير كالصوم .. موضوع يتعلق بالجنة والنار .. يبدو أن أبي لا يفهم خطورة الموضوع ويتصور الجنة كالعلاوة التي لا تأتي أبدًا .. قلت لأُمِّي لن آكل يعني

لن آكل .. مفهوم .. أنا غير مستعد لدخول النار من أجلك أو من أجله
هو ..

قلت لأمي هذا الكلام لأنني لا أخاف منها ، أما أبي فيستحسن
التعامل معه بشكل يبدأ بأن تسوق عليه النبي .. قلت لأبي اليوم .. والنبي
يا بابا . عاوز أصوم .. ضرورى أصوم ..

عدت أتوسل لأبي وأستعطفه .. وضع جريدته بحنق وسألني فجأة :
- إنت عاوز تصوم ليه .

قلت بجرأة - علشان ربنا قال كده .

قال - وربنا قال لك تضيع كل يوم قلم .. وتبقع المريلة حبر ..
أدركت أن أبي يغش في اللعب ، نحن نتحدث في الصيام ،
ما الذى أدخل موضوع المريلة والحبر والأقلام التى تضيع . انتهى الأمر
ووضعني أبي موضع الاتهام ، هذا أسلوبه دائماً معنا ، لا يكاد أى
واحد من سكان هذا البيت يرجوه فى شىء حتى يخرج أبى عليه بمفاجأة
تضطره إلى التراجع والوقوف موقف الدفاع عن النفس ..
قلت لأبى بجرأة أدهشته ..

إحنا بنتكلم فى الصيام يا بابا ، وعلى أى حال أنا مستعد آجى كل
يوم ومعايا القلم والمريلة نضيفه .. بس ضرورى أصوم .
قال أبى بلطف كما لو كان يتحدث إلى مجنون صغير .

- إنت صمت أول يوم فى الشهر ، تصوم يوم ١٥ ، ويوم ٣٠ ،
يتحسب لك صيام الشهر كله .. أيه رأيك ؟

ما هذه المساومة .. لماذا تقوم حياة الناس فى هذه الدنيا على
المساومات والتنازلات ، كل شىء فى الدنيا له ثمن ، تقول لهم أريد

بسكليتته .. فيقولون لك عندما تنجح . لم أقل لأبي رأبي في كلماته ، غير
أننى أحسست بالإهانة .. ما معنى أن أصوم ثلاثة أيام فى الشهر ،
فتحسب ثلاثين يوماً ؟

هل سنضحك على الملائكة ، أم سنضحك على رمضان نفسه . أم
يتصور أبى أنه يضحك علىى .. كيف تتحول ثلاثة أيام إلى ثلاثين يوماً ..
هل هذا حساب .. ويغضبون منى عندما أرسب فى امتحان
الحساب .. ١٩٩

عاد أبى يسألنى - إيه رأيك ..

قلت وأنا أقترّب منه - حضرتك نسيت تسأل عن أخبار جدى ..
ماما كلمته فى التليفون .

قال أبى بانفعال - أخباره إيه ..

قلت - الحمد لله كويس .. الدكتور قال له إنت كويس وعندك
شوية ضغط .. لكن تقدر تصوم .. لا .. لا .. قال له ضرورى تصوم
وأنت تخف ..

قال أبى .. الحمد لله .

. استراحت ملامح أبى وأضاء وجهه صفاء جميل ، هذه هى نقطة
الضعف الوحيدة فيه . أنه يحب جدى .. الذى هو أبوه .. حبا شديد
الغربة ، وعندما يمرض جدى يصبح أبى إنساناً آخر .. إن البيت كله
يتحاشاه ويتعد من طريقه ، والويل لمن يحدثه أو يقترّب منه أو يطلب
شيئاً .. لقد أطمأن أبى على صحة أبيه ويمكن الآن أن نتقدم بالطلبات
ولاشك أنها ستحظى بالموافقة .. ثم يقولون إننا أطفال .. إن أبى هو
الطفل .. لقد ضحكت على عقله بهذا الخبر السار .. قال أبى وهو
منشرح الوجه - الدكتور قال له إنه كويس .

قلت - وقال له كمان إنت حتعيش ميت سنة ..

ضحك أبى بعد أن اطمأن على صحة أبيه ..

- وإنت عايز تصوم مع جدك عشان تعيش ميت سنة زيه .

قلت - إيوه يا بابا .. عايز أصوم مع جدى ..

قال - أنا ما عنديش مانع إنك تصوم .. بس إنت حتتعب . أنا

باجى للساعة تلاتة وأبقي مش شايف .. تستحمل إنت ازاي بس ..

قلت لأبى ملاحظاً - يا بابا إنت مش بتشوف عشان بتنسى النضارة

ومش بتشرب سجاير .. لكن أنا مش بشرب سجاير ، مش إنت قلت

لولا السجاير والقهوة كنت تصوم على طول .. أنا لا بجب ريحة السجاير

ولا بشرب قهوة ..

عاد وجه أبى إلى تردده ، فقررت العودة إلى استخدام سلاح

الضحك على عقله وقلت :

- إيه المانع إني أصوم زى جدى .. مش هوه بيقول إني راجل

زيه ..

قال أبى يائساً - طيب روح بقه فلقت دماغى .

إنتهى الأمر ووافق الديكتاتور على الصوم ، وبذلك ضمنا الجنة ..

كنت سأضيع .. أفطر في رمضان ثم أدخل النار ، والنار مليئة بالمدارس

وامتحانات الحساب والقواعد والتاريخ .. إن مدرس الدين يحدثنا كثيراً

عن النار . وهو يصف اللهب الذى ينبعث منها ويصف السنة الدخان ..

غير أن فكرتى عن النار أبسط .

يستحيل أن تختلف النار عن الحياة التى نعيشها الآن .. يكفى شكل

المدارس وسخافة المناهج وانعدام اللعب وغياب السرور من الحياة .

إننى أنوى الصيام لكى أنجو من تكرار هذه الحياة .. فأنا لست حاراً ، والتكرار هو الذى يعلم الحمار .. الحمد لله الذى أنقذنا من النار .. سألت مدرس الدين يوماً هل فى الجنة مدارس .. فاجأه السؤال وامتنع وجهه وفكر قليلاً ثم قال - لا مافيش مدارس .. عدت أسأله حضرتك حشتغل إيه فى الجنة أمال .. وضحك الفصل كله ، وغضب المدرس غضباً شديداً ، وكاد يضربنى لولا أنه رآنى ربيعاً كعود القصب فعفا عنى .. لست أفهم ما الذى أغضبه فيما قلت .. فى الجنة حدائق سنلعب فيها وليس فيها مدارس ولا امتحانات ولا سقوط ولا تهزى ولا ضرب ولا إهانة ولا إكراه فى أكل سندوتشات الصباح ..

الجنة هى المكان الوحيد الذى ليس فيه امتحان .. لقد تأكدت من هذه المعلومات تمام التأكد ، صحيح أن فى الجنة أنهاراً من اللبن ، وأنا لا أحب اللبن ، ولكنى لست مضطراً لشرب هذه الأنهار ، سأنتفج عليها فقط . سأكون حراً تماماً فى الجنة .

الجنة مكان ليس فيه غير الضحك واللعب .. وهذا كله مضمون بالصوم .. وقد حصلنا على إذن بالصوم .. ولم يبق إلا أن نصوم ، وعندما نصوم يحبنا الله ، وعندما يحبنا الله يجيء الإمتحان سهلاً ، إن الله يعرف كل شىء فى الدنيا ، ومادام الله يعرف كل شىء فلا بد أنه يعرف سخافة المدارس والتعليم .. إننى لا أتعلم من المدرسة شيئاً غير الخوف وعدم الفهم ، وهذا شىء محزن .. غير أننى لم أعد حزيناً ..
غداً أصوم ..

المشكلة أنى أدوخ قليلاً بعد الظهر .. غير أن هذه الدوخة ستكون حجة طبية لعدم المذاكرة إلا بعد الإفطار .. وبعد الإفطار يحلها ربنا .. !!

● الأثرى

ما أعجب هذه الحياة ، إنها تنقضى قبل أن يعرف الإنسان دوره فيها ، تجرى الأيام بأسرع مما يجرى الماء من بين الأصابع ، بالأمس كنت أولد ، واليوم صار عمري خمسًا وأربعين سنة ، تبدو لي الآن مثل لحظة حلم خاطف . مرت خمسة وأربعون شهرًا من شهور الصوم مثلما تمر خمس وأربعون شجرة من نافذة قطار مسرع ، تنسحب الصور وتضيع التفاصيل ويبدأ الشك أصلًا في وجود الأشجار . كم تغير إحساسى بالزمن ..

كانت أُمى رحمها الله تدعو لى وأنا طفل أن يطيل الله عمري حتى أرى أولادى وأحفادى ، ثم أدركت حين كبرت أن المشكلة ليست إضافة سنوات إلى حياتنا ، ولكنها مشكلة إضافة حياة إلى سنواتنا ، وها هى دعوة أُمى تتحقق فى شطر منها فحسب ، مد الله فى عمر أيا مئى بغير أولاد وأحفاد ، تزوجت ولم أنجب ، ولا يبدو لى أنئى سأنجب ، قال الطبيب منذ سنوات بعيدة إنئى غير قادر على الإنجاب رغم أنئى بئخير ..

وقال طيب آخر لزوجتي إنها هي الأخرى غير قادرة على الإنجاب رغم أنها بخير ، وأدهشني أن يجتمع سببان للعقم في أسرة مصرية واحدة ، ولو كانت زوجتي هي السبب لتزوجت غيرها ، ولو كنت أنا السبب لتركها تتزوج غيري ، غير أننا معاً في نفس الموقف ، ألغت المأساة كل المسافات بيننا وزاد التصاقنا بغير معنى ، قلت لزوجتي معقباً على الموضوع : إن العقم مأساة سواء في الحضارة أو في الإنسان ، وربما كان الإنجاب عمقاً لو كنا لا نعرف كيف نربي الأولاد أو نطمعهم أو نعلمهم ، ولعلنا أقل عمقاً من غيرنا وأقل تعاسة ، وعلى الأقل لن نقلق حين لا يحصل الأولاد على مجموع في التوجيهية ، لأنه ليس هناك أولاد ، وعلى الأقل لن نرتعش بهذا الخوف الغامض ونحن نتصور مستقبل أبنائنا فتدور رؤوسنا من الهول ..

هزت زوجتي رأسها موافقة ، وإن بقي في قاع عينها تعبير من اليأس البارد . زاد التصاقى بعملى في مصلحة الآثار وانكفأت على التماثيل بحب أكثر من ذى قبل ، وفهمت من صمت الحجارة اليأس تفسيراً لنظرة زوجتي .. لقد كف الاثنان عن الامتداد .. كفت التماثيل عن امتدادها بسبب الموت .. وتوقف الأحياء عن امتدادهم لأسباب أقسى من الموت . وأحياناً يكون الموت داخلها ، ولا علاقة له بالحركة .. يجيء إلى الإنسان فلا يشعر بمجيئه .. تبقى حركته الخارجية فيخرج ويدخل ويأكل ويشرب ويضحك ويبكى ويتزوج ويطلق ويكسب ويخسر .. وهو ميت ولا يدري أنه ميت ، ينطفئ داخله شيء ما .

بعدها يبدأ هذا النوع من الموت ..

وتمر الأيام ويتآكل الإحساس بالقهر ويحتل الحزن مساحته .. ثم يذوب الحزن في مياه الأيام والشهور ويبقى هذا الشعور الهادئ بالوحدة .

استيقظت اليوم كعادتي وفتحت شبك الغرفة ..

الشمس ليست دافئة وليست باردة . إنما هي بلا طعم ، والأشجار عارية بسبب الشتاء ، وليس بسبب الرغبة أو الجمال ، والرياح تؤدي مهمتها بوهن وتجرجر على الأرض أوراقاً ممزقة من أشياء لست أدري أصلها .. دخلت زوجتي الغرفة فأحسست بدخولها .. قالت ورأسها في الأرض : صباح الخير يا محمد .. كل سنة وانت طيب ..

رددت عليها التحية بغير أن ألفت إليها .. تعذبنى نظراتها الصامتة ويدهشني أن الحوار لم يعد يستغرق من وقتنا في اليوم كله غير ثوان .. رحت أرتدى ملابسى بعد أن تركت لها مهمة الاختيار ، لبست القميص واختارت لى رباط عنق يشبه لون قمصان الكهنة أيام قدماء المصريين .. هذا اللون البيج الشفاف الذى يحاكي لون الزيت المستخدم فى مسح رءوس الفراعنة .. انتصبت الحضارة المصرية القديمة وغرس الفرعون أعلامه فى بوابات الأرض الأربع ثم سقط ميتاً من التعب . ودخل الفرعون الشاب العقيم حجرة قدس الأقداس فى المعبد وراحوا يمسحون له رأسه الخليق بالزيت المقدس وهم يتمتمون بكلمات السحر ، استشرى السحر حين مات العلم ، وهمس له كاهن أحذب ألا ينظر إلى الناس كى يخافه الناس فيتحول إلى إله ..

اكتشف هذا الكاهن للفرعون الجديد حلاً سهلاً لمشكلة عسيرة قال له :

– اكتشفنا يا سيد الأرضين اكتشافاً فى أصول الحكم يزيد فى أهميته على اكتشاف المحراث فى دنيا الزراعة .

قال الفرعون وهو يتشاءب : نسمعه الآن .

قال الكاهن : لو تحدثت أبواق دعايتك عما تنوى أن تفعل فى

المستقبل بأسلوب الماضي .. فسوف يبدو للناس أنك حققت فعلاً
ما كنت تنوى تحقيقه .

قال الفرعون (وكان غيبياً) : لا أفهم

قال الكاهن : لو صارت الكلمة بديلاً عن الفعل . لن يكلف هذا
الفرعون غير حركة الشفاه واللسان .

كان الفرعون كسولاً فقبل .

أزحت التراب عن جاكنتي ، وسقطت ملايين الأتربة والرمال على
رأس الفرعون الشاب وصار سطرين يمثلان بالأخطاء التاريخية في كتاب
تاريخ ..

نزلت من البيت وحلقتي جاف ، وسرت في الشارع الضيق المليء
بالسيارات الهامدة التي يصلحون أحشاءها ويتباهون باكتشاف أسرارها
بالفهولة ، ويقلدون أطفال الحوارى في أوقات الفراغ باللعب بالألغاز
البذئية .

أحسست بالضيق واثنان يجريان وهما يضحكان ضحكاً متصللاً
ليست فيه رنة فرح واحدة .. اصطدمت قدمي وأنا أسير في الحارة
بشيشب امرأة تجلس أمام بيتها وهي ترتدى السواد ، وكان الشيشب
مقلوباً فعدلته بقدمي أثناء السير ، ولم أكد أخطو خطوة واحدة حتى
مدت المرأة يدها وقلبت كما كان ، قلبت شفتي احتقاراً وأسرعت في
السير .. إنها تسحر هي الأخرى .. ربما كانت ضرتها تخلو بزوجها في
الداخل فقلبت هي الشيشب لعلها تستحضر النكد .. هذا ما ورثته ذات
الملابس السوداء من سحر قدماء المصريين .. ذهبت أسرار التخنيط
وبقيت أسرار الشيشبة ولا فخر .. أحسست بشيء من الغرابة لكوني
مصرياً ، تساءلت داخل أليس شيئاً محيراً أن يحمل رجل مثلي في قلبه

صورةً قديمةً تبدأ كلها بكلمة تقول .. كان ياما كان .. تنفست بقوة
لأنتخلص من ضغط شيء يشبه الهم على صدرى وأسرعت فى السير ..
خرجت من الحارة إلى شارع الترام .. وقفت أنتظر مواصلة تقلنى إلى
العمل .

الشارع قديم وعجوز وصائم .. على وجهه شحوب الصائمين وفوق
شفتيه بياض شفاه الصائمين .. المقاهى نصف نائمة ومحلات العصير تنفجر
على العصير ، وبائع الفول يعبىء قواه كى ينطلق قبل مدفع الإفطار ..
مر ترام مفتوح ذكرنى بأول اختراع للترام ، حين كان صاحبه لم يفكر فى
اختراع جدران مغلقة تقى الناس من البرد .. أسندت رأسى إلى عمود النور
ووقفت أتأمل الرصيف المكسور القديم .. سارت عينائى ثم توقفنا طويلاً
عند البيت المقابل .. كان البيت قديماً سقط ملاطه وظهرت أخشاب
إحدى نوافذه ، وخيل إلى أن البيت حزين . إن علامة الحزن الحقيقى
أن يهمل الإنسان ثيابه ومظهره ، وخيل إلى أن الشارع يشارك البيت
مشاعره .. انتزعنى وصول الأوتوبيس فركبت .. أخيراً هذا هو المتحف
المصرى .. أحسست ببرد الراحة والسلام حين دخلت من الباب .. هذه
مملكتى الحقيقية .. هنا لا أحس بالزمن ولا بالقلق ولا بالحزن . جلست
فى مكتبى وتبدأت للعمل ، بدأ الموظفون الذين يعملون معى يفتدون إلى
للتهنئة بشهر رمضان ، كنت أحس أنهم يضيعون وقتهم ووقتى ووقت
قدماء المصريين بهذه التهانى ، ثم بدأ الحديث عن العمل خلال هذا
الشهر ، وسقت حجج كثيرة ومعاذير متصلة تلتقى كلها عند وجوب
تقسيم العمل بشكل يسمح للصائمين بالصوم ، وخيل إلى أن الأغلبية
تتمسح فى شهر رمضان كى تتراح قليلاً من عناء العمل ، أو فلنقل لكى
تكف قليلاً عن العمل ..

أدهشنى هذا التصرف ، وأحسست بنفس إحساس إختاتون حين

هزمه الموت وعادت ديانة آمون . أبعد اختراع الكتابة ، واكتشاف
التقويم الشمسي ، والاهتداء للزراعة ، يجيء تراخي الأحفاد وتحضر
العبقرية مجراها بحثًا عن طريق للتهرب من العمل ..

رفضت كل الحلول المقترحة لتضييع العمل ، وأحسست في وجوه
المروسين بالرغبة في استرداد تهاثهم لى بجلول الشهر الكريم ، وزاد
إحساسى أنهم جميعًا يكرهوننى حتى النخاع ، لم أعبأ بهذه الكراهية ..
إن شهر رمضان كريم وينبغى ألا نقابل كرمه بلؤم البلطجة ..

وقديمًا تمت نصف الفتوح الإسلامية في شهر رمضان ، ولم يكن
فرسان النهار ورهبان الليل يتارضون ، أو يتاوتون أو يجتجون بالصيام .
انصرف المروسون وهم يلعنوننى في سرهم ويدعون على .. وخرجت
أمارس مهنتى التى أبدؤها عادة بالمرور على تمثال خفرع المنحوت من
الديوريت .. صباح الخير .. قلتها له فى سرى ووقفت أتأمل ملامحه ..
صائم منذ آلاف السنين .. صام عن الطعام والحركة والتف بعنصرى
الخلود والجلال والاحتمال . ونظرت فى وجه التمثال العظيم وحاولت أن
أعرف آخر كلمات قالها قبل أن يطبق شفثيه إلى الأبد .. لو عرفت هذه
الكلمات فربما تغير كل شىء ..

إن ما ينقصنا أن نهتدى إلى اللغة .. ولو عرفنا اللغة فربما دبت الروح
فى الصلصال الساكن ، وبعدها سيصبح اكتشاف الطريق صعبًا وإن
كان غير مستحيل ..

وطالت وقفى أمام التمثال .

وخيل إلى أن فى وجه التمثال تعبيرًا طارئًا من الترفع والكبرياء
والغضب .. كأنه ينكر شيئًا ولا يملك القول ..
شيئًا خانقًا ولا يملك القول ..

● العاشق

وجاء الصوم على العاشق فابتلع عطشه القديم
عطشه الجديد .. وغرق حرمانه الصغير وسط حرمان
الكائنات الأعظم ، واستشعر السلام النسبي ،
وسيق إليه اعتذار من السلام النسبي بأن السلام
الحقيقي لم يتخذ من الأرض مسكنًا بعد ، مثلما
رفضت العدالة المطلقة أن تستقر هي الأخرى على
غلاف كوكبنا السابع .. إنما هي النسبية التي تحكم
كل شيء يدب فوق التراب .. يقاس أى شيء
بغيره ، كل ما على التراب نسبي كالتراب وخارج منه
وعائد إليه بعد رحلة ..

هي رحلة بالطول أو بالعرض ، بالعمق أو بالارتفاع كل إنسا
حسب طاقته الروحية .. تريد روحًا عظيمة ، تعطيك معها عذا
عظيمًا ، وإلا فيم كان طلبك لعظمة الروح . أو تريد نفسًا صغير
فنعطيك أحرانًا صغيرة ، وتجيء وتذهب مثلما يجيء الهاموش ويذهب
يطن قليلًا في جو الحجرات ثم يهوى بلا خوف ولا إدراك لسر مجيء

أو حكمة ذهابه ..

لا تنقل لى : إن آدم قد ولد من حواء .. حواء هى التى ولدت من آدم ، وليس أحدنا مسئولاً عن إحساسك الخاص بامرأة تشبه آلاف السائرات فى الطريق .. أو على الأقل هذا رأينا نحن .. ونحن هذه أغلبية .. وأنت يا سيدى العاشق أقلية فى هذا الكون ، قضت مشيئة عليا أن يكون الصفاء الحقيق أقلية فى الكون ، تماماً كالماس .. ثم ما الذى يدريك أنها أصلك .

لماذا لا تجيب ؟ ..

لم يلتفت العاشق لمصدر السؤال .. أكتفى من الإجابة بالذكريات ..

كان اليوم بعيداً ...

لم يكن هناك غير الله ..

كان كل شىء فى الكون ساجداً يبكى ..

هذه الدموع التى نجىء بلا سبب ، أو تجىء من إحساس مطلق بالرحمة والحنو ووجود الخالق .. كان آدم قد خلق .. لم تكن حواء قد خلقت بعد .. وأخرج الله كل ذرية آدم من ظهره وأخذ عليهم عهده بأنه ربهم وحده .. كفى لا يعبد أحدهم فى الأرض غيره أو يجب سواه أكثر منه .. والتقيا فى ذلك اليوم .. كانت هى مجرد ذرة .. نصف ذرة .. وكان هو نصف الذرة الثانى .. وكانت هى بلا شكل .. سارا معاً فى الطريق الطويل تحت عين الله ، وتأمل هذه الذرة التى تسير جواره ..

وسأل - أنت وحدك ..

قالت : كما ترى ..

قال : نسير معاً ..

قالت : كما تحب ..

قال وهو يقترب منها أكثر وأكثر :

- لماذا أريد أن أقرب منك .

قالت : اصمت .. يتحدث الله بعد قليل ...

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ..

يفتح الستار على الخليقة بخشوع الأصوات للرحمن ، مثلما يغلق الستار يوم القيامة بخشوع الأصوات للرحمن .. صممت كل الذرات أمام ذى الجلال ، وأخذ الله عهده عليهم .

● ألسنت بربكم ؟

قالوا : بلى .

وانصرفت كل الذرات وبقيت هي معه .. كان ينوي الانصراف ثم وجدها تسبح ببطء .. راح يدور حولها وهو مشدود إليها ولا يعرف لماذا ينتظرها .. تجرأ أخيراً على السؤال وهمس :

- ماذا يؤخرك ..

قالت : أصبغى تؤلنى ..

سأل - أى أصبغى !؟ .. لم تخلق يدك بعد .. (أحس أنه أمام حجة مكشوفة .. وأحست هي ذلك) .

فقالت : أحس أنها تؤلنى ..

اقترب منها أكثر ، خجل أن يسألها أى أصبغى تؤلها ثم اختار إحدى أصابعها ، أو تخيل أنه اختار إحدى أصابعها وأحبها أكثر من غيرها ..

عادت تقول : ما أجمل هذا العهد الذى أخذه الله ..
لم يفهم قصدها من التعليق ، ولهذا سكت .. عادت تقول :
- لماذا لا آخذ العهد عليك أنا الأخرى ..
تساءل - أعاهدك على أى شىء ..
قالت : أن ألاّ تحب غيرى ..
تساءل وهو يتلفت حوله :
- وهل هناك غيرك ..
قالت : ربما تنساني فى الأرض ، أو تبحث عني فى امرأة أخرى ..
قال : هل هناك غيرك ..
قالت : قبل يدي الآن واقسم على الوفاء لى مهما يحدث .. أنا
لا أعرف كيف تكون حياتك على الأرض .. ربما لا تستطيع تقبيل يدي
فى الأرض وربما قبلتها ثم تركتها تفلت من يدك ..
قبل يدها قبل أن تخلق يدها ، وعادا معاً إلى ظهر سيدنا آدم ..
كانت كل الذرات قد عادت إلى ظهره قبلها وبقى الجميع ينتظرون هاتين
الذرتين .. وأدرك آدم أنه أمام قصة حب لم تولد بعد .. تساءل آدم ..
أين كنتما .. بغير أكاذيب ..
قال وهو يقف بينها وبين آدم :
- أنا المسئول عن تأخيرها يا أبى ..
كانت إصبعى تؤلمها .. أقصد كانت أصبعها تؤلمنى .. أقصد ..
وضحك آدم على الكذبة البيضاء التى يبدأ بها الحب عادة ثم قال :
سيصوم كلاكما طويلاً للتكفير عن هذا الخداع .. لقد اخترتما الحب

العظيم .. وإذن فهو العطش الأعظم ..
أمرها أن يعودا إلى ظهره فعادا ، وسألها هو وسط زحام الذرات ..
- أى اسم تحملين فى الأرض ..
قالت : هل هناك احتمال أن تنظر إلىّ ولا تعرفنى ..
قال : الزحام شديد وسط الذرات .. أى اسم تحملين فى الأرض ..
قالت : سأحمل الاسم الذى تسمينى به ..
قال : لم أسمع .. مدى يذك إلىّ .. أتوه منك وسط الذرات وأحس
الوحدة والضياع والخوف ..
قالت وسط زحام الذرات الهائل : أين أنت ؟ ..
وضاع صوت بكائه فلم تميزه وسط الأصوات المختنقة المكتومة
السحيقة ، وانبعثت الموسيقى وأغرقت كل شيء ، ثم سقط السكون
وآدم يمد يده للشجرة المحرمة ..
وبكى آدم مثلما بكى هو حين ضاعت منه ..
وصدر الأمر لآدم بالهبوط إلى الأرض ..
عقوبة نعم ..
ولكن معروفة وفى علم الأزل وحكمة عليا .
وعلى الأرض يختلف كل شيء .. أضيفت إلى الذرات .. دم ولحم
وعظم ومصالح وتقاليد وأصول ومخاوف وارتباطات وزواج وأولاد
وعمل ومقهى وتراب وذباب .
والتقيا ذات يوم صدفة ..
وأشرق كل شيء فى نفسها فجأة ..

الآن الشمس كانت أكثر دفئًا . ولأن زرقة السماء كانت أصفى وأعمق . لقد تكلمنا عن الشذى والهواء المعطر والله يعلم كم كان تحت الشرفة التي يتكلمان فيها من أتربة وقمامة ..
توهم كل واحد منها أنه يستنشق عطرًا جديدًا ..
وقعا في الحب ..

وفي مثل هذا النوع من الحياة .. وهذه البقعة من الأرض .. لم يكن هناك احتمال واحد لدوام الصدق بينها .. لم يكن ممكناً لحياة فاسدة أن تترك شيئاً نبيلاً ينمو فيها أو يكبر .
قتل جو الحياة الخائض ، كما قتل النظام السائد حولها وهيج قلبين خلقا ليكمل أحدهما الآخر ..

واختلطت دموعهما على القرب وقال لها :
- ليكن صومنا عطشاً فيه نبل العطش .

● الفدائي

صائم أنا منذ ستة أشهر .. من قبل أن يجيء شهر
رمضان صمت ..

أمواج البحر عذراء لم تمخرها سفينة .. والرياح
نقية لم تلمس جبهة إنسان .. والجزر الموجودة في
الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر .. لم تنزل الدنيا نقية
لم تلوثها كذبة واحدة ..

وأبو البشر يدخل الآن الجنة ، وأنا ولدت اليوم فقط ، خلقت معي
كل الأسرار التي عرفها البشر من أيام آدم .. رغمها أقسم أنني لا أعرف
شيئاً ، موجود أنا لأن العطش موجود .. أولد دائماً مع الصوم ،
يحركني العطش إلى رائحة البحار والرياح والجزر والحقائق والأسرار ..
مرت خمس ثوان من الههجة وأمي تضمنني لصدرها ، ومرت عشرة
آلاف سنة من البؤس ، فصار عمري خمساً وعشرين سنة .. اشتعل
الرأس شيئاً ، ولم أزل أحس بالطفولة .. ذهبت الرغبة في الرضاعة من
صدر الأم ، وتوهجت الرغبة في الرضاعة من صدر الأرض .. أن يرقد
الإنسان على ظهره ويستسلم لجاذبية الأرض ويفوص .. ينسحب الشارع

ويموت البيت ويهتز العمل ويذهب التراب ويصفر وجه الخيانة وتختصر
الأكاذيب ويشحب الواقع الأليم كله ويبدأ السلام ..

سلام في لون مياه البحر القديم ..

أتذكر في الحلم كل شيء .. كان هناك بحر .. وكان عرشه على
الماء .. أين كان عرشه ، وكيف كان عرشه ، ومتى كان ذلك .. سقط
الطفل وهو يحبو فصرخت أمه إنه استعجل المشى وهو لم يكبر بعد ..
سقط العقل عند آخر حدوده .. سقط عند شاطئ بحر .. بقيت قوقعة
وحيدة .. سألتها عن الحقيقة ، فكانت مشغولة عنى بالتأمل .. دخل جسم
غريب في قلبها وهى الآن تصنع اللؤلؤ .. تبكى بطريقتها الخاصة ،
ولكل واحد طريقته في البكاء .. ربما كنت أبكى الآن بطريقتى
الخاصة .. أريد أن أتحرك .. أنهض .. أستيقظ .. أصرخ .. أبتسم ..
أحب .. أكره .. أقاوم .. لا أفعل شيئاً من ذلك .. لا أقدر .. صدرى
مسمر فى الأرض .. ميت أنا .. قتلت .. منذ ستة أشهر كنت أزحف
على بطنى فى طريقى إلى الهدف .. ثم وقفت وبدأت أجرى نحوه ..
وانطلقت الرصاصات من وراء ظهري .. كان هناك أصدقاء يقفون
ورائى .. لم أغضب .. ولم أتألم .. ولم أشعر بالمرارة .. كل ما فى الأمر
أننى دهشت وأنا أموت .. هذه الرصاصات تقف لخلقى لحماية ظهري
أساساً .. وها هى تمزق لحمى وعظمى وتغوص إحداها جوار القلب ..
رفض قلبى أن يستقبل الرصاصات .. مرت جواره ، فابتسم .. قلبى
مشغول بحب عظيم ولا يستطيع أن يستقبل شيئين فى وقت واحد ..

قلبي يجب .. ولهذا أعتذر للرصاصات أن تسكنه .. انكفأت على
وجهى كالأطفال وأحسست بالعطش ، وبدأت الصيام فى نفس
الوقت ..

لم أكن أشعر بشيء في البداية .. غير نوع من التهاف والضعف ، غبت عن الوعي فترة لا أدريها ، فتحت عيني فوجدت نفسي لم أزل منكفئاً على الأرض كما كنت .. وكانت الرمال حولي كلها حمراء ، ولست أدري لماذا جرى ذهني لضحية العيد الكبير ، وخيل إليّ أن سيدنا إسماعيل يجلس هناك في الصحراء قريباً مني ، لو رفعت رأسي قليلاً لرأيت ، غير أنني كنت ضعيفاً إلى الحد الذي لم أتمكن فيه من الحركة .. انتهى الأمر وصلبتني الرصاصات في رمال الصحراء .. وانساب من مكان بعيد في روعي ينبوع من الفرح ، فوجئت حين اكتشفت في نفسي وجود هذا الينبوع ، وفوجئت أكثر حين راحت أحلام الفرح الغريب تسيل في ذاكرتي ، وانساب تيار من الصور .. رأيت نفسي طفلاً في العاشرة ، أستمع لقصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل ، كان إسماعيل صبياً ، وكان إبراهيم شيخاً ، ووجدت نفسي أتعاطف مع الصبي ، وحين أرقده والده النبي الشيخ على الأرض وأمسك السكين لذبحه ، كانت أنفاسي معلقة من الخوف والروع .. ثم انسابت من روعي موجة حب عظيم حين فداه الله .. أنا لم يفتديني أحد ، على العكس ، ذبحني الذين انطلقت أدافع عنهم ، كانت هذه الخيانة تحمل إلى قلبي دفعات غير مفهومة من الفرح ، وأدركت أنني أموت ، كنت وأنا حى أغضب حين أسمع عن خيانة ، وأثور حين أقرأ عن غدر ، فكيف أفسر إحساسي هذا الآن ، لا ريب أنني أموت .. لم أكن أحس بانزعاج وخوف ، إن سلاماً عظيماً يملأ صدري الذي خلا من الدماء .. مع كل نقطة من الدم الذي يتسرب مني كان الله يملأ مكانها بالسلام ..

قالت أمي : لو جلسنا في حالنا وأغمضنا أعيننا لتركونا نعيش في

سلام .

وقال مدرس التاريخ : لا سلام إلا إذا صار الأطفال رجالاً
ودافعوا عن الأرض .

وقال مدربنا الفدائي : نحن لا ندعوكم إلى القتل من أجل
الأرض .. التراب أهون شأنًا منكم ، وإنما ندعوكم لتقتلوا من أجل
القيم النبيلة التي يريد الله على الأرض ..

ما أعظم كلمة الله حين تتردد أصداؤها بين الأغوار والجبال .. نحس
وأنت تقول الكلمة أن الجبال تسجد والشجر يسجد والنجوم تسجد ،
والصحراء كلها طوع أمرك .. ونحس أنك تسند ظهرك لجدار من الأمن
الذي يستحيل أن يصيبه من الخوف شرخ ، ونحس أنك قادر .. وغير
قابل للموت ..

نعم .. أحسست يومها أنني في خلود كلمات الأنبياء ..

ليس لي دين واحد ، ولي في نفس الوقت إله واحد .. كل أنبياء
الله أنبيائي .. وكل رسالات الله رسالة لي ، أو من سليمان وموسى ، كما
أو من يعيسى ومحمد ، كما أو من إبراهيم ونوح .. أحيم جميعاً وأؤمن
برسالاتهم كما أنزلت من السماء قبل أن تبدأ رياح التعرية الإنسانية في
نسج الأساطير حولها ومحو الحقائق .. أى حمق إذن أن أتصور أنني
أموت ، غير قابل أنا للموت كالحقيقة سواء بسواء ..

من كان مثلي يؤمن بالله .. فكيف يدركه الموت .. نفترض جدلاً أنه
نعس .. أغمض عينيه ونعس إلى يوم القيامة .. فهل يقال إنه مات ،
كيف يموت إنسان يؤمن بالله .. إنه ينام فحسب أيها الأطفال ، يغمض
عينيه فتعتقد أنه مات .. لا نعرف الحقيقة فنقول أى كلام .

تذكرت «هالة» فضحكت وأنا أرقد على وجهي في الرمال .. كانت
تقول لي سأفتقدك لو مت ، يجب ألا تموت لأنني أحبك .. هذه أوامري

إليك .. وهى أهم من أوامر قائدك الفدائى ..

وسألنى قائد الفدائيين يوماً : من التى ترسل إليك كل هذه الرسائل .. ؟

قلت : قريبة لى .. ابنة عم لى .. مات أبوها دفاعاً عن وطنه وهى مخلوق لا يتحدث إلا فى السياسة والدين ..

ضحك القائد وقال : أى إنسانة مملة .. أفهم السر الآن فى رغبتك أن تموت ..

رحت أضحك وأنا أنزف .. ليس لمخلوق فى الدنيا نقاء جبهتها ، أنقى من ثلوج الجبال حين خلقت الجبال .. كيف أبلغها وأبلغ القائد أننى لا أموت .. إنما أنعس فحسب .. كيف أقول لأصدقائى جميعاً إننى أفلت من الموت .. لقد قالت لى يوماً سينحتون من عظامك مكاتب أنيقة للدلاء بالتصريحات الكاذبة من ورائها ، وسيبعون عينيك كاللآلىء لصنع قصور يكافحون من وراء جدرانها بالأحاديث ، وسيقتلك الذين خرجت تحمى أطفالهم . ستصفيكم الخيانة ، وتبكيكم بدموع التماسيح وحبر الصحف .. سيقتلونك ستقتلك الأنظمة الخائنة ويتفرج عليك الناس دون أن يتدخلوا لإنقاذك .. ستموت .. كانت متهورة كأى عاشقة .

لم تكن تعرف أننى لا يمكن أن أموت .. لا لأنها تحببى ولا لأنها ستموت بعدى .. ولا لأننى أتحصن من الموت ، وإنما لسبب آخر بسيط كل البساطة .. قال الله لى لو قتلت فى سبيلى فلن تموت .. ولقد خرجت دفاعاً عن كلماته هو - سبحانه - دفاعاً عن قيم أنبيائه .. دفاعاً عن نقاء الحياة التى خلقها الله - عز وجل - وأنا الآن أتياً للنعاس ، وأعرف أننى غير قابل للموت ..

عاودنى الإغماء .. ثم فتحت عيني بعد فترة .. لا أحس بالألم أو
الخوف أو الأسف ..

لم أعد أحس بالمشاعر الإنسانية .. عقلي كله يقترب من السر
العظيم ..

الصمت يسود الصحراء .. وكل شيء صاف ورائق .. صدمت يدي
فراشة خضراء .. شعرت داخلي بشعور غامض .. قد يكون فرحًا ، وقد
يكون الأمل .. ولكنه على كل حال إحساس آت من قرارة روحى ..
إحساس مازال غامضًا .. ولكنه يوشك أن يبين .. كانت الفراشة تريد
أن تقول لى شيئًا .. وأغمضت عيني وركزت تفكيرى وأحسست أنني
أقرب من السر .. وبدأت صومى الحقيقى حين بدأت الفراشة
تتحدث ..

● الباحث

إذا ذكر شهر الصيام ، تهلت وجوه الأنام ،
واستيقظ جوع النيام ، وتحلب الريق إلى الطعام .
وتتطور الأطعمة طبقًا لتطور الذوق العام ، وتزدهر
مع ازدهار علوم الصمت والكلام ، ولا يتوقف
المضغ في حالات الحرب والسلام .. أيضًا يؤثر فيها
الاهتمام بالثقافة رغم ضمها إلى الإعلام ..

ومن الأمور التي تؤثر على الطعام ، سهولة المواصلات وقلة
المطبات ، وانتشار التعليم وسعة الإقليم ، وانفتاح الآفاق على الزواج
والطلاق ، وتؤثر الكيمياء بدورها في تطور الطعام ، كما يلعب الفلك في
ذلك دوره الهام ..

والأطعمة أنواع مختلفة ، ولطهيها أساليب مؤتلفة ، وفي الأطعمة
ما ينقرض بحكم تطور الحضارة والتاريخ ، ومنها ما يبقى منذ أقدم
العصور كالفسيح .. وقديماً قال الشاعر العربي :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

يصدق بيت الشعر على الأنام ، كما يصدق على الطعام ، فتخطف الحياة أفضل الأطعمة وأكرمها على اللسان ، وتبقى لنا أكثرها اجتلابا لتعاسة الإنسان ، وهكذا احتفظ لنا التاريخ بالفسيح من أيام قدماء المصريين ، واختفى طعام الخبيصة ، رغم انتائه لليمنيين . وهذه الدنيا لا تثبت على حال ، ويتقلب فيها القيل والقال ، فيجرب على الأطعمة ما يجرب على الناس ، فيضيغ طعام الفالودج ويبقى القلقاس ..

والأطعمة مثل الدنيا ، فيها الحار والبارد ، وفيها الطريف والتالد ، وفيها الصعود والأفول ، وفيها الفاكهة والبقول ، وفيها اللوزنج والفول ..

ويقسم المؤرخون الأطعمة إلى نوعين رئيسيين .. أطعمة تاريخية ، وأطعمة جغرافية . أما الأطعمة التاريخية فتلك هي الأطعمة التي عاشت في الأزمنة السحيقة البعيدة ، والتي ورد ذكرها في كتب الأقدمين وقواميسهم ، وهي أطعمة غامضة ، ومن الصعب أن نصف مذاقها للإنسان .. لا لعدم نشاط الذاكرة أو بسبب النسيان ، وإنما لأننا لم نضعها على ألسنتنا قط ، ولا عاصرنا الأحياء الذين ذاقوها ليحكوا عنها .. أما الأطعمة الجغرافية ، فهذه هي الأطعمة التي تستوطن أقاليم معينة بالذات ، تنمو فيها وتشب عليها وتتوالد بها وترعرع لها وتلاحق أهلها ويسهل تذكر شكلها لفرضها لنفسها على الناس ، آتاء الليل وأطراف النهار ، وعلى الأجزاء اليابسة وفي البحار .. ومن أمثلة الأطعمة التاريخية :

طعام الخبيصة ، واللوزنج ، والفالودج ..

ومن أمثلة الأطعمة الجغرافية :

طعام الفول ، والطعمية ، والبصارة ...

وقد حاول بعض العلماء تحضير الأطعمة التاريخية في المعمل ،
فبيات محاولاتهم بالفشل ، كما حاولوا نسيان الأطعمة الجغرافية لحظة
واحدة ، فضاعت جهودهم هباء .. ويعتقد المؤرخون أن الأطعمة
التاريخية تشبه الديناصورات التي لم تستطع أن توائم بين وجودها ووجود
الظروف الطبيعية حولها ، فانهزمت بانقراضها وذهبت بعد أن أسعدت
قلب الحياة وسعدت .. من هذا النوع طعام الخبيصة واللوزنج
والفالودج ، أما الخبيصة ، فهي نوع من الحلوى التي تخلط من العسل
ونقى الدقيق ، ويدفن فيها اللوز والسكر ، وطريقة صناعتها مجهولة
تماماً ، وهناك أسماء غير معروفة ، مثل اللوز .. أى شىء يكون
هذا اللوز .. أكان نباتاً أم حيواناً أم جماداً .. أما اللوزنج ، فهو شىء
أقل غموضاً من سابقه ، تحدثنا كتب الأقدمين أنه يشبه القطايف ،
ولكنهم يقولون أنه يؤدم بدهن اللوز ، ويحشى بالجوز .. مرة ثانية تقفز
على صفحات البحث هذه الأسماء الغريبة .. اللوز والجوز ، لا نعرف
أكانا نباتاً أم حيواناً أم جماداً ، هل كانا شقيقين أم أبناء عمومة أم أبناء
خثولة .. هذا كله من الأمور الغيبية التي لا ندرى عنها شيئاً .. ولما كان
هذا البحث يتصل بالواقع ، فقد فضلنا فيه النظرة العلمية الموضوعية ،
بأن نتحدث عما نعرف ، بدلاً من الخوض فيما نجهل ، أما الفالودج
فطعام إسطورى غامض .. صحيح أن اسمه إيراني ، ثم حرفه العرب إلى
البالوذة ، ثم حرفه المصريون إلى البلوطة ، غير أنه ثبت من الدراسات
أن الفالودج كان شيئاً يختلف عن البلوطة ، فقد قيل إنه كان يحلى
بالفزدق واللوز ، وعين الجمل والجوز ، والبندق والصنوبر ، والقراصيا
والتين ، والمشمش والزبيب ، وجوز الهند والسكر ، وتحاول أنت
كقارئ أن تتصور طعم هذه الأشياء حين تجتمع في طبق واحد ،
فتفشل ، لا تستحضر غير طعم السكر المصحوب بشاى التمرين ، وإذن

نستطيع ، استناداً إلى الأمانة العلمية ، أن نقطع بأن الفالودج كان ديناصوراً وذهب .. صحب معه اللوزنج والخبيصة وذهبوا جميعاً ...

ثم ما هي حكاية عين الجمل هذه التي كان يحلى بها .. هلى كانوا يقلعون عين الجمل وهو حى أم وهو ميت .. وإذا كانوا يأخذون عين الجمل فكيف يسير الجمل .. أم أن الأمر تشبيهه فحسب .. إن الغموض يتكاثر على البحث .. وقد صرنا ندب وسط ظلام حالك ، لا تبدده غير بعض آثارهم التي نتحدث عنهم .. ومعظم هذه الآثار واردة في كتب الأدب وكتب المسامرات العربية القديمة ، وكتب الظرفاء ومن إليهم ممن لم يعرف لهم عمل ولا محل إقامة ولا هواية ، وهذا كله شيء لا يمكن للباحث المنصف أن يطمئن إليه أو يثق فيه أو يعول عليه أو يأخذ به ..

قيل مثلاً : إن رجلاً مات من فرط أكله اللوزنج ، وإن رجلاً انسرع بعد أن أكل الفالودج ، وإن رجلاً طار في الهواء بعد أن طعم من اللوز والجزوز .. وهذا كله شيء محير ..

ولعل هذا هو السر الذى حدا ببعض العلماء إلى القول بأن الأطعمة التاريخية لم تكن موجودة وانقرضت كالديناصورات .. وإنما هى أصلاً لم توجد إلا فى تخيلات الذهن الشعبى الذى دفعه الجوع إلى اختراع ما لا وجود له ونسج الأساطير حوله ..

وبذلك تنتقل إلى الجزء الثانى من البحث ، وهو خاص بالأطعمة الجغرافية .. وهى أطعمة واقعية ، يعرفها القاصى والدانى ، والأعمى والبصير ، والشيوخ والشباب ، والكاعب والشمطاء .. أطعمة جبارة تنزل على المعدة نزول العاليق المجرمين بأرض المسلمين الطيبين ..

وأشهر الأطعمة الجغرافية هو الفول ، وهو نوع من أنواع البقول ،

وهو ينفث النوم في أنبه العقول ، وهو أصلاً من طعام العجول ، كان مقصوراً عليهم ثم تقاسمه البشر معهم حين ضاقت الأرزاق ، وقضت بذلك مشيئة القادر الخلاق .. نتيجة ظلم الحكام الذين ليس لهم خلاق .

وتتمتع الأطعمة الجغرافية ، كالفول والبصارة والطعمية ، باحترام بالغ بين الناس ، رغم وقوف الأمعاء ضدها مع الإحساس .
وجاءت على الفول أوقات ، اختفى فيها من قائمة الأقوات ، ولما كان له كثير من العشاق ، فقد اشتعلت في قلوبهم الأشواق ، ونظم فيه شعراؤهم معلقات ، لا أذكر منها غير هذه الأبيات :

أقول إذ اختفى الفول	وباب الرزق مقفول
لماذا قد مضى عنا	بعيداً وهو مأمول
وأين الآن موطنه	وهل هو فيه مأكول
لقد أصبحت والله	كأني اليوم مهبول
ألا يا أيها الفول	أقول أنت أم غول ؟

وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب والاستغراب ، فهكذا حال الدنيا من قديم العصور والأحقاب ، وما دامت تلك الأطعمة الجغرافية محظوظة ، فالله الغني عن الفالوذج أو البلوطة .

● الأعبز

كل عام وأنت بخير يا بيك ..

تجاهلت كلمته وأسرعت في السير .. جرى ورأى
بواب العمارة الذى لا يكف عن الشكوى ويريد
العمل فى دولة عربية كالكويت أو السعودية متصوراً
أنه سيبنى عمارة حين يرجع .

قال وهو يلهث وينحنى على يدى ويكاد

يقبلها :

- يا بيك .. صاحبة العمارة تجرى على أيتام ، وقد دخل الشهر
الفضيل ، والأجرة متأخرة منذ شهر ، وها هو الشهر الثانى قد شرف
وهلّ . فما العمل يا بيك وما الحل ؟ تأملت كلمات البواب بعقل نصف
مغمض . كدت أضحك وأبكى فى الشارع ، لولا أننى خشيت أن يفسد
صومى ، تجرى على أيتام . من هى التى تجرى على أيتام ، نحن أيتام
هذا الزمان يا «أبو زيد» فعليك وعليها اللعنة ، هل الأيتام التى تجرى
عليهم هى العمارة الثانية التى تبنيها على النيل .. ؟!

سألنى أبو زيد وصوته المشروخ يتصنع البكاء :

- ماذا قلت يا بيبك .. ؟

● قلت : لا إله إلا الله يا أبو زيد .

اللهم إني صائم ، قلتها في سرى وسرت في الطريق ، ملامح الطريق أعظم بؤساً من ملامح وجهي ، انهزم الطريق من فرط ما كذبوا عليه وأقنعوه أنهم سيصلحونه ولا أمل . أسكن في حارة في حى السيدة زينب .. أنا رجل أعزب بلغ عمره الأربعين ، لم أتزوج لأننى أكره النساء ، أو فلنقل إننى أحب النساء إلى الدرجة التى يصعب علىّ فيها أن أقنع بالزواج من امرأة واحدة .. أو فلنقل إننى لا أملك ثمن الزواج بما فى ذلك من أصول وفروع وملحقات كالمهر والجهاز والشبكة ، أو فلنقل أى سبب .. لا تهم الأسباب طالما أن هذا موضوع شخصى بحت ، أنا لا أكره فى الدنيا شيئاً قدر كراهيتى لإعطاء أسباب لتصرفاتى ، ليس معنى هذا أننى رجل سيىء ، إننى أعتبر نفسى رجلاً طيباً فى نهاية الأمر ، فعدد ذنوبى التى أذكرها لا يزيد عن أربعة ذنوب كبيرة ، تزوج منها ذنبان ويطاردنى الذنبان الآخران ، أما عدد الذنوب المتوسطة فلا يزيد عن ثلاثة عشر ذنباً ومعظم ذنوبى من النوع المعطر

ولقد قررت أن أكفر عن ذنوبى فى شهر رمضان ، وكل عام أكفر عن ذنوبى فى هذا الشهر ثم أعود بعده لارتكاب الذنوب ، حتى مللت وسئمت .. غير أننى قررت ابتداء من هذا الشهر أن أبدأ عهداً جديداً تماماً .. كنت أجلس فى الثقب الوحيد الذى تطل منه حجرتى على الحياة ، ورحت أتأمل ميدان السيدة وهو يعيش الشهر الكريم ..

إن باعة الفول يتناثرون كالنجوم السوداء وسط الميدان ، أشحت ببصرى عنهم وتصاعدت الكراهية من قلبى مثل موجة هادئة .. كم أكره

الفول .. إن عمرى أربعين سنة ميلادية .. ولا أعرف كم من السنين الهجرية يكون هذا العمر ، وإننى لأعترف أنني لم أكره في حياتى مخلوقاً من مخلوقات الله قدر كراهيتى للفول .. أن تكون أعزب يعنى أن تظل تأكل الفول طوال حياتك . لا يكون هناك مفر من هذا المصير ، إلا إذا كنت أعزب ولبصاً في نفس الوقت .

إن نوعاً من أنواع العداوة الشخصية أنشبت أظافرها في قلبى تجاه هذا الفوم .. لقد سماه القرآن الكريم هكذا (من فومها وعدسها وبصلها) ، واعتبره أدنى من الطعام الذى قدمه موسى لقومه (أستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) .. على أى حال ، لا أستطيع أن أنسى أنى عشت أربعين عاماً ، وهذا يعنى أننى عشت ما يقرب من ١٤ ألفاً وأربعمائة يوم ، وهذا يعنى أننى أكلت ثمانية وعشرين ألف طبق من الفول ، وعليها ثمانمائه طبق ، إذا كان متوسط ما آكله في اليوم منه طبقين ..

ولا أكاد آكل طبقاً من الفوم حتى تنسدل ستارة ذات لون بنى ، هو لون جلد الفول على عقلى ، ويصعد الصهد ذو البواخ إلى المخ ، ويبدأ عقلى في التثاؤب ، وتركد كل الأشياء المسرعة . تتبدل الحياة . أقول لنفسى لم أحصل على علاوة ، وأحس باللامبالاه .. لم أترقى في الحياة .. ويزيد إحساسى باللامبالاه .. هجرتنى البنت التى أحببتها .. لا مبالاه .. خسرت نقودى أو كسبت لا مبالاه .. ذهبت أو جئت .. لا مبالاه .. تزوجتنى لأننى أحبك .. لا .. فقط بغير مبالاه .

جاءنى أجمل ذنوبى في اليوم الثانى من أيام رمضان ، دق جرس الباب بعد الإفطار فدهشت . ، إن أحداً لا يزورنى مطلقاً في رمضان ، هذه تنيهاتى المشددة على الجميع ، إن كل صديقاتى يعرفن أننى أنحول إلى ولى من أولياء الله في رمضان ..

فتحت الباب وواربته .. نظرت إليها وقلت بحسم :

ما الذى جاء بك اليوم .

قالت : دعنى أدخل ..

قلت : ألم أنه عليك بعدم الحضور فى رمضان .

قالت : جئت كشقيقة تزور شقيقها ..

أزاحتني بيدها ودخلت . كانت تحمل لفة كبيرة من الطعام ، وضعت الطعام على المائدة ، حيث تشير الآثار إلى معركة مع طبق فول ضخم ، سألتني :

- هل شربت الشاي .

قلت ساخطاً : انتهى البوتاجاز اليوم

قالت : أحضرت لك ترمساً مليئاً بالشاي .. لا تتصور كيف أفكر

فيك .. إنني أجن كلما رأيتك تعيش. عيشة الكلاب التي تعيشها ..

نكست رأسها ولمعت عيناها بالدموع وانحدرت قطرتان كبيرتان من عينيها بغير صوت .. أحسست أني أمام تمساح جميل يبكي .. لو حدث هذا قبل رمضان لانهرت .. لكننى الآن شديد التماسك .. قلت لها لا تبكى لأن الموضوع ليس مأساة ..

قالت : تزوجنى .. لماذا لا تتزوجنى .. أى شيء يكلفك زواجى ..

أريد أن أخدمك وأطعمك وأغسل ملابسك وأهتم بشئونك .. لماذا لا تسمح لى بذلك .. دعنى أفعل ذلك من أجلك .. لا أريد شيئاً .. لن أكلفك شيئاً .. كل ما أريده اهىء .. اهىء ..

تزايد بكاؤها وراحت تحدثنى عن حالى ، ونظرت إليها من وراء الستارة الداكنة التي أسدلتها طبق الفوم على عقلى وقلت :

- كفى عن البكاء .. اغسلي وجهك وانصرفي .. أنا أشكرك على إحساسك .. احملي معك الطعام الذى أحضرته .

أشحت بوجهي وقلت لنفسى إن حالى كما تقول أنتس من حال الكلاب ، ولكن مجرد الاستماع إليها ذنب ، ودموعها عورة ، ورؤيتها وهى تبكى أمر غير مأمون العواقب .. وهذا المشهد يتكرر فى الأيام الأولى من كل رمضان .. تحاول استغلال طبيتى وعودتى إلى الله لجذبى إلى قفص الزواج ، غير أننى لا أنجذب للزواج ، لأننى لم أعد أنجذب لشيء ، يجعلنى الفول ثقيلاً لا أنجذب لشيء ، ويجعلنى الصوم خفيفاً فأنسى أننى جسد .. أتحول إلى روح فقط .

ظلمت أنظر بوجهى من النافذة إلى ميدان السيدة ، سمعت صوت الباب يفتح ويغلق ، خرجت السيدة أخيراً ، حمدًا لله ، ما أغرب النساء ، لقد تحولت من البكاء والنهبة فجأة إلى الصلابة ، مسحت دموعها وكفت عن النحيب وخرجت .. تركت الطعام الذى أحضرته وخرجت ..

ها هى تخرج من العمارة وتسير فى الشارع .. إنها تمشى الآن جوار أحد باعة الفوم المنتشرين فى الميدان .

إنها لا تدري الآن أنها تسير جوارى .. جوار الشيء الذى أنقذنى منها .. أو حرمنى منها لست أعرف .

استغفرت الله وتوضأت ونويت الصلاة .. قبل أن أصلى فتحت اللفة التى أحضرتها .. هذا محشى .. وهذا لحم بارد .. ماشاء الله ماشاء الله .. أقبلت على الصلاة بقلب منشرح .

● العالم الجهبذ

ذهبت هموم حرت في أسماؤها
وأنت هموم ماهن أسامى

لا يعرف من يكون قائل هذا البيت من الشعر ،
ليس أديباً ولا علاقة له بالأدب .. إنما هو رجل من
رجال العلوم .. عالم مصرى له أبحاثه التى تنشرها
المجلات الدولية .. يعمل فى مصر منذ ٨ سنوات ..

ولهذا يعلق هذا البيت فى الشعر فى برواز لطيف وراء مكتبه فى معهد
البحوث الذى يعمل فيه .. يعتقد كثير من زملائه أنه مهزوز قليلاً .. غير
أن أحداً لا يعرف أن المسافة بينه وبين الجنون شعرة ، والشعرة مشدودة
إلى نهايتها .. ولولا الخوف من الله تعالى لانتحر ، ولولا الخشية من اتهامه
بالجن لهاجر ، تعلم فى أمريكا وجاء إلى مصر ، كان متفوقاً وناصباً فأرسل
فى بعثة ، أنهى بعثته وعرضوا عليه مرتباً مغرياً هناك ليستمر ، ولكن
نفسه تاقّت إلى مصر .. أهله وخطيبته وقريته وجلسته تحت شجرة الجميز
وهو يأكل الفطير المشلتت ، وشعور غامض وغير مفهوم بأنه لن يكون

شيئاً في أمريكا مهما ارتقى ، أى مجهود يبذله هناك .. مجهود أجير في بلد ليست بلده ، أما مصر فيستطيع فيها أن يضيف نقشاً على جدار التاريخ .. وربما كان المرض للوطن أو الحنين للوطن هو السبب .. المهم أنه جاء .. دفعته أسباب عاطفية فعاد .

عاد إلى مصر مزهوا يفكر في الأبحاث العلمية التي سيجريها ، وتصور وهو عائد أن إحدى الجمعيات العلمية تنتظره في المطار بباقات الزهور والموسيقى .. ثم أصابته أول تفويقة في المطار .. لم يكذب يهبط من الطائرة ويدخل الجمرك حتى أحاطته العيون بنظرات الشك ، وفتحت حقائبه وفتشت بدقة حتى بدأ يشك في نفسه كمهرب ، وتساءل هل هناك مهربون على الطائرة ، وما هو هذا الشيء الذي ينتظر أن يهربه عالم عائد من أمريكا إلى بلده مصر ، وأجابوه بالصمت والابتسام الغامض الذي يقع بين خبث القرويين وسوء ظنهم ..

ونجح مزيج الصمت والابتسامات أن يعمق داخله إحساسه بالإهانة الشديدة ، وثار في المطار يومها ثورة هائلة .. وكلما زادت ثورته زادت ابتسامات الموظفين وزادت سرعة أيديهم وهي تفتش في حقائبه .. لم يهدأ إلا حين رآهم يعاملون جميع المصريين هكذا .. ذهب إحساسه بالإهانة وبقية دهشته .. تساءل عن السرفقيل له : المسافر في الدنيا كلها برىء حتى تثبت إدانته ، أما في مصر فالمسألة فيها نظر ، لماذا يسافر .. هيه .. لماذا عاد .. هيه .. ولو عاملنا الإنسان كبرىء حتى تثبت إدانته كما تعامله كل الدول الراقية ، فأى تقدم نكون قد أحرزناه .. هيه .. ينبغى أن نجد ونطور .. تأمل أنت الفكرة الفنية في كون المسافر مهرباً حتى تثبت براءته أليست فكرة ..

لم يقل شيئاً ولكن محه تقلقل من مكانه بمقدار شعرة .

ومرت الأيام الأولى على عودته وعين في أحد معاهد البحوث .. عاد إلى خطيبته وكتب كتابه عليها ، وتزوجا .. لم يجد غير شقة خالية في آخر شبرا فسكن فيها ، كانت عنده سيارة ، غير أن مروره يومياً في شارع شبرا ذهاباً إلى عمله وعودة منه كان يقلقل مخه بمقدار نصف شعرة في الذهاب ونصف شعرة في الإياب ، وكان العرجية وسائقو الكارو وعربات اليد يشتمونه في ذهابه وعودته . وأصاب معدته نوع من أمراض الحساسية بسبب تنطيط الأكل فيها من مطبات الطريق ..
وهان هذا كله بجانب ما لقيه من دنيا البحث العلمى ..

اكتشف في مصر اكتشافاً قلقل مخه من مكانه بمقدار شعرتين ..
اكتشف أن البحث العلمى هنا يمضى في بيئة لا علاقة لها بالعلم .. بيئة تقاوم العلم دون أن تدرى .. فهى أحياناً تأكله وأحياناً تبيعه وأحياناً تغمسه بالزيت ..

كان يشتغل في أمريكا على أبحاث تهجين الخراف بهدف الوصول إلى صوف أغزر وأنعم لاستخدامه في الأغراض الصناعية .. كانت مادة البحث العلمى هى « الخروف » ..

وبدأ في معهد الصحراء تجاربه على مجموعة من الخراف .. راح يقوم بتزويج بعضها من بعض .. ويراقب النسل ويزوجه من أفضل الأنواع ويراقب النسل الجديد .. كان يريد أن يصل بتجاربه إلى مجموعة من الخراف ذات صوف طويل وناعم وغزير ومتجانس .. وكانت النعومة أحياناً تتحقق ولكن لون الصوف لا يبيىء متجانساً .. وعاود البحث والتهجين خمس سنوات طويلة .. حتى ولد خروف كان أقرب ما يكون إلى حلمه النهائى .. يستحيل أن نعبر نحن عن فرحة العالم بمادة بحثه العلمى .. لو قلنا : إنه أحب هذا الخروف أكثر من زوجته وسيارته ونفسه ما بالغنا قط .. كان هذا الخروف بالنسبة إليه يمثل قمة تجاربه

ودراسته .. وكان أملاً وحلمًا وإضافة جديدة لدنيا الخراف في مصر ..
كان الخروف بالنسبة إليه ثورة علمية .. وراح ينتظر أن يكبر ..
وغادر المعمل يومًا وعاد ثاني يوم فلم يجد الخروف .. استدعى العمال
وسألهم :

- أين ذهب الخروف ١٩ ..

قال أحد العمال :

- يا بيك قفز أمس من سور الحظيرة فوق على رجله فانكسرت
وأنقذناه بالذبح ..

وقال عامل آخر : بل قفز من سور الحظيرة فوق على رقبتة
وانكسرت رقبتة ومات قبل أن نذبحه فدفناه ..

وقال عامل ثالث : والمصحف الشريف يا بيك نحن نقول لك
ما حدث .. وحق شهر رمضان الكريم نحن

اختلفت أقوال العمال ، وأحس هو أن عنده يتقلقل في رأسه بمقدار
ثلاث شعرات ..

وثبت من التحقيق أن العمال نظروا إلى الخروف واشتهوه ، فذبحوه
وأكلوه واتفقوا على تأليف قصة وهمية عن إصابته .. وصرخ يومها وشد
شعره وثار ولطم وذهب وجاء وهدد وتوعد وانهار ، ولكن الخروف كان
قد استقر في بطون آكليته بهدوء ورفق ..

انتهى التحقيق في الموضوع وتم خصم أيام من المتهمين بسرقة
الخروف وأكله ، وأغلقت أوراق التحقيق وقضى الأمر ، غير أن الأمر
لم ينته بالنسبة إلى العالم .. كان يسأل نفسه : أيمن أن يأكل الناس
مادة بحث علمي .. لقد أكل هؤلاء الجاهلون ثمرة عشر سنوات من
دراسته وتفكيره وأبحاثه ومجهوده .. أكلوا هذا كله مسلوقًا أو محمَّرًا

أو مشويا وضيعوا على البلد آلاف الجنيهات ببساطة .. كان قلبه يشتعل بالغضب .. وراح يحكى القصة لزملائه العلماء والباحثين فوجدهم يستمعون إليها بهدوء ، ويحكون له قصصاً لا تقل عنها غرابة ..

قال له أحد الباحثين على الفراخ :

إحمد الله .. أكلوا لك خروفاً واحداً .. أنا يأكلون عندى أرانب التجارب وبيض الفراخ بصفة مستمرة .. رغم أننى أحقن الدجاج بمواد كيميائية هى مواد سامة كجزء من البحث .. وطالما نهيت إلى أن يبيض الدجاج مطلوب للبحث العلمى ، وأنه يمكن أن يقتل من يأكله أو يؤذيه .. رغم هذا انتدب اللصوص من بينهم واحداً شهماً وأطعموه بيضة وانتظروا أن يموت ، فلما ظل حيا بدأت سرقة بيض التجارب ..

وقال له أحد الباحثين فى الكيمياء :

لدينا مادة تسمى البتروليم ايتير .. وهى مذيب كيميائى لا نستغنى عنه ، اكتشف اللصوص أنها أعظم المواد فى التنظيف الجاف ، هذه المادة تسرق من العمل وتذهب رأساً إلى أحسن مكوجية فى القاهرة لتنظيف البديل ..

وقال له أحد الباحثين فى الفول :

زرعت قيراطين من الفول .. فول التجارب .. وجشت يوماً ففوجئت بأن مجهولين قد أكلوا الفول وهو معلق فى أشجاره .. لم تكن هناك بذرة فول واحدة يمكن أن نستمر بها فى البحث بعد ذلك .. طيب يسب فولتين نزرعهم بعد ذلك .. أبدأ .. حمل النذل فى بطنه التجربة ومضى .

وحديثه أحد الأطباء عما يلاقيه فى أبحاثه فقال :

نحن نجرى أبحاثاً على تأثير مرض السكر فى العين .. ونحضر من ألمانيا

مادة اليتيريم المشع ، وهى مادة عمرها ١٨ ساعة ، بعد ١٨ ساعة تفقد تأثيرها ..

كانت هذه المادة تمكث فى مطار القاهرة ١٨ يوماً فقط حتى تخرج .. كانت تحتاج إلى ستة وعشرين تصريحاً من جهات مختلفة .. وكل مرة كانت المادة تجيء إلينا ، كانت تجيء بعد أن تفسد ..

أخيراً أوقفنا فى المطار واحداً يحمل فى جيبه التصاريح المطلوبة كلها حتى تدخل المادة مباشرة ونستطيع أن نستمر فى التجارب ..

راح يستمع من زملائه إلى آلاف الحكايات .. عن صمام جهاز يعطل الجهاز بأكمله ، أولية جهاز توقف العمل فى مستشفى ، أو سرقة مادة التجارب العلمية ، أو غياب الروتين والإدارة . ويوماً بعد يوم اقتنع بأن مأساته لم تكن فادحة ولا تستحق كل هذا البكاء الذى بكاه ..

إن منطقة الحلم التى كانت تملأ روحه قد انكشفت داخله إلى ستي متر مربع ، وتقدم الواقع البشع واحتل مساحة الحلم .. ولم يعد العالم يتحدث عن موضوع الخروف .. فى البدء كان يرتعش إذا جاء ذكره ، ثم راح يسخر من نفسه ويقول : أكلوه ولم يعطونى منه قطعة .. ها ها ..

ثم سكت تماماً ونسى بجهه ، وانصرف عنه واكتشف أعظم اكتشافاته ذات يوم ..

لقد مرت عليه سنوات لم ينل فيها درجة ..

نعم .. كيف نسى هذا ..

إسوة بزملائه ..

نعم ..

● الكسارى

الشمس تنحدر ، بعد أن أكملت وردية
النهار ، فى طريقها إلى المخزن الإلهى .. والدنيا
رمضان ، وقبل زنقة المغرب
- تذاكر ... ورق ...

مد يده إلى بقرش وهو يقول :

أفاطم لو شهدت معى بشيرا	وقد مر الترام يكر كرا
إذن حققت فى دنياك يوماً	كيوم الحشر بل يوماً أمرا
إذن أبصرت ناساً فوق ناس	وقد حشروا به فى الحر حشرا
وصورا فيه ينفخ كمسرى	فيحدث صوته بالسمع وقرا
يرى الركاب قد هاجوا وماجوا	فينزل فيهم شخطاً ونظرا
وليس من الحساب لهم مفر	وإن هم حاولوا سرا وجهرا
وكم مكروا فما انتفعوا بمكر	وكان الكسرى أشد مكر
فأصحاب اليمين أو الريمو	أولئك أعظم الركاب أجرا
وأصحاب الشمال لهم حساب	يكيل لهم من الصفعات عشا

فيا للهول ، يالى من ترام
وقفت على المحطة نصف يوم
ولما رق لى من بعد غلب
مشى متشخلاً يخال عجباً
يقلبنا على الجنبين خضاً
يسير محطة ويعود أخرى
ولما شفت نفسى بعد هذا
قفزت إلى الطريق وقلت أمشى
فإن المشى أسرع منه سيرا
قلت له : هلى تحدثنى حضرتك ... ؟

قال : أبدا .. أكلم نفسى كالمجنون ..

قلت لنفسى .. جن الناس جميعاً ..

فلا حول ولا قوة إلا بالله .. ثم حدثته بصوت مرتفع .. هذا
قرش ، ونحن نريد قرشاً ونصفاً .. هذه درجة أولى ..

قال وهو يتنهد : ما هو الفرق بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية ؟

قلت بحسم : هنا الكراسى جلد وهناك خشب .

قال بدهشة : أين جلد الكراسى ؟

قلت بهدوء : داب والحديد يدوب فلا تعذبى .

قال : ثق أنتى لا أعذبك .. كنت أدفع لك التعريفة لو كنت

أجلس على الجلد ..

قلت له بحسم : هل تعرف القراءة ؟

قال وهو يتبسم : وأقول الشعر ..

قلت له : لا أفهم فى الشعر .. وأشرت إلى لافتة الدرجة الأولى ،

فسألني :

- هل تصدق أنت اللافتات ... ؟

قلت له : ليس المهم هو التصديق أو التكذيب ، المهم أنني أتحرك تبعاً لهذه اللافتة ..

قال : ينبغي ألا تصدق اللافتات والشعارات ، مادامت تناقض الحقيقة ..

قلت له : ادفع التعريفه وقدم شكوى ..

. قال يائساً : أشكو لمن يا سيدي الكسارى .. لشريط الترام أو للمحطة ..

قلت : لنا مدير عام تشكونا إليه ..

قال هازئاً : لن يصدقني لأنه يركب سيارة ولم يركب الترام في حياته ..

قلت له : لا تعذبنى ، فالدنيا رمضان ، وأنا صائم وقد وقعت في عرضك ..

قال : أنا الآخر صائم مثلك ومصلحة .. وليس في جيبى غير القرش الذى أعطيته لك فلا تحزنى ولا تفضحنى ..

قلت له : تقول إنك مصلحة ..

قال : ابن أخى يشتغل كمسارياً في ترام العباسية .. وأنت في مثل سنه ، وهو بمنزلة ابني ..

قلت له : أهلاً وسهلاً شرفت الترام ونورته .. أعطيته القرش وجلست أدردش معه ..

قال وهو يتهد : هذه الدنيا أوتوبيس بمقطورة ، أو أقل إنها ترام
فيه الأبدان محشورة ، والنفوس مقهورة ..

قلت له : معك الحق .. هل تعرف أنني لم أعد أنفخ الآن في
الزمارة .. لا معنى للترميز .. يتكدس اللحم على اللحم ويخفق صوت
الزمارة فلا يسمعه السائق .. سألتني :

وماذا فعلت لحل هذه المشكلة .. ؟

قلت : تم الاتفاق بيني وبين السائق وزميلي الكمسارى فى العربة
الثانية ، إنه إذا وقف الترام ، راح كل واحد فينا يعد من واحد إلى
عشرة .. بعدها يتحرك الترام دون حاجة إلى نفخ أو ترميز .. ألغى الزحام
الزمارة كما أهدر الكرامة ..

قال : دعنى أكمل عبارتك .. بعد ضياع الكرامة برزت من
مواهب الإنسان موهبة الشطارة .. أن تعرف كيف تلقى بنفسك فى هذا
الموج العظيم اللجى ، من اللحم الآدمى ، هذا يحتاج لأسلوب رياضى
وعلمى .. وليس فى الكون كله شعب يتعلم أفرادهم حفظ توازنهم فى أسوأ
الظروف كشعبنا المكافح .. إن الواحد يجرى ثم يقفز إلى الترام ، تستقر
إصبع من أصابع قدمه على السلم ، وتمسك يده كرافته راكب آخر ،
وعليه أن يقاوم السقوط تحت العجلات ويحفظ بتوازنه .. يحدث هذا
فى نفس الوقت الذى يحاول فيه الراكب الذى تنشده كرافته أن يخلص
كرافته .. أى مهارة أن يعيش الإنسان فى مصر .. يحتاج إلى مهارات
لا يحتاج إليها المواطن فى المربخ ..

قلت له : معك حق .. والله لولا أنني كمسارى ما ركبت الترام
قط ..

قال الراكب المصلحة : احمد ربك ، حالك أفضل من حال

غيرك .. أنت كمسارى وغير راكب ..

قلت للراكب المصلحة : أحلف لك بالطلاق ثلاثا أننى مظلوم كالركاب وربما أكثر .. جاء علينا شهر رمضان فزادت المناكفة والمشاكسة ، وزادت النزفة والنأوزة ، وتأكد نشفان الريق ، واستحكمت بالمرء الضيق ، وانسد أمامى الطريق .. ولولا أننى صائم ومأمور بالصبر وموعود بالجنة لبلغت حد اليأس وشققت رأسى بفأس ، يعتقد الراكب أنه هو وحده يشقى لأنه يركب الترام مرة فى اليوم أو مرتين .. ماذا أقول أنا والترام مسكنى ومحل إقامتى وأكل عيشى ..

ما أعظم ظلم الإنسان الراكب لأخيه الإنسان الكمسارى .. يركب الراكب من الأهالى نصف ساعة ، فينزل من الترام صاخبًا ، لاعتًا ، ساخطًا ، يائسًا ، منهارًا .. ماذا أقول أنا وركوبى فيه يستمر ثمانى ساعات كل يوم ! .. قطعًا تقبل الله دعوات أمى على ، كنت شقيا وكانت تدعو على بعدم الراحة ، وها قد تحققت دعواتها بالكامل ، وها أنا أجنى ما زرعت يداى ، لا يتعذب الراكب ربع عذاب الكمسارى ، يقف الراكب فى مكانه ، ليس مطلوبًا منه أن يتمشى فى الترام من أوله لآخره .. أما أنا فيجب أن أذهب وأجىء .. لا يعرف أحد أننى أمشى فى اليوم عشرات الكيلو مترات ، كم طول عربة الترام ، عشرة أمتار ، كم مرة أمشيها فى اليوم ، ألف مرة ، ألنى مرة .. نضرب الألقى مرة فى العشرة أمتار ، يصير المجموع عشرين ألف متر ، أمشى كل يوم عشرين كيلو مترًا ، كل يوم أمشى نصف المسافة من هنا لبها ، هلكت وانتهيت .. لا نقل لى أن المشى مفيد للصحة .. أنت لا تعرف فى أى ظروف تعيسة أمشى ، أنا لا أتفصح ساعة العصرية والدنيا طرية ، إنما أسير فى جهنم ، لحم قد انحشر فى لحم . ناس قد ركبت فوق ناس ، كرع قد دخل فى منخر ، أنف قد انحشر تحت

إبط ، وجه قد اندعس على ظهر ، تعلمت أن أسير كالهواء بين الخروم
وليست هناك خروم ، تعلمت أن أستطيل وأنكش ، أن أتمدد
وأثقلص ، أفخذ من تحت أقدام هذا الراكب ، أتحمّل كوع هذا
الراكب وهو يكاد يقلع عيني ، أستنشق تنفس الراكب ، من كان
سحوره الفجل والكرات .. من كان سحوره البصل والأمهات .. ولا بد
أن أمشي ، ذهاباً وإياباً ، لا أتوقف ولا أهدم ولا أون أو أمل ..
وطوال الوقت أتكلم .. المفروض لمن يبذل مجهودى أن يغلق فمه ويطبق
أسنانه ويكز على ضروسه ويتحفز .. لكنى مطالب ببذل هذا المجهود وفى
مفتوح طيلة الوقت كالأبله .. ورق .. تذاكر .. ورق يا بيك .. لا يرد
البيك .. تذاكر يا حضرة .. يتظاهر الحضرة بأنه لم يسمع .. ورق
يا أستاذ .. ينقل سمع الأستاذ .. تذاكر يا أفندى .. ينظر الأفندى فى
الناحية الأخرى ويسرح .. أضطر إلى استخدام الألفاظ الحكومية الرسمية
فأقول : تذاكر يا سيد .. أليس هذا هو اللقب الرسمى لنا جميعاً .. إن
لونا من التهديد ينطوى داخله .. لا أمل رغم التهديد .. الطرش
مستمر .. تذاكر يا .. لا يرد الـ يا .. أضطر أن أخوض فى منطقة
الاحترام وعدمه فأقول تذاكر يا محترم .. أخيراً يسمع المحترم .. ويتبأ
الراكب ويجمع شجاعته ليمد يده فى جيبه .. ما أغرب تعبير وجوه
الأهالى عندما تمتد أيديهم فى جيوبهم .. إن لونا من ألوان القنوط الياثس
والحسرة يلون الوجوه وهى تهباً للدفع .. كأننى أستل أرواحهم .. لماذا
يغضب الراكب حين يمد يده فى جيبه ؟ .. لماذا يتقلص وجهه بهذا
الألم ؟ .. أعرف أنهم معذورون .. ركبت الترام مرة فى غير أوقات العمل
الرسمية ، ولم أكن أرتدى البدلة الميرى .. فجاءنى الكسارى وقال
تذاكر ، فأحسست كأنه طعننى بسكين .. كدت أصرخ فيه .. هل أنت
مجنون .. أتعذب كل هذا العذاب وتريدنى أن أدفع ، لا أستسلم لهذه

المشاعر الإنسانية أثناء عملي ككسارى .. أتحوّل من أحد الأهالى إلى رمز للحكومة وأستعجل الراكب حثا على الدفع ، وتغيب يده فى جيبه كأن أصابعها تفكر ؛ وأنهره غاضباً على سبيل الاستعجال ، فإرد زاعقاً إن يده المحشرت فى جيبه فلا تنتظر قليلاً ، فالدنيا لم تظر ، وكل شىء فى مكانه ..

عذاب دونه عذاب يوم الحشر ، سيكون عذاب يوم الحشر محتملاً لأن الملائكة تنظمه ، أما هذا العذاب فلا ينظمه أحد ، ولا يراقب أحد ما يجرى فيه ، ولو كنت مسئولاً لوضعت فى كل عربة من عربات الترام واعظاً وجندياً ، واعظاً ليحدث الناس عن عذاب يوم القيامة ويخوفهم من النار فيعمدون إلى الأدب ويتقون الله فيمن يركب من الحرم ، وجندياً يمسك من لا يرتدع خوفاً من العذاب الأخرى ..

قال لى الراكب : يقولون إنهم فى بلاد بره يجعلون للكسارى كرسياً يجلس عليه فى آخر الترام ، ويدخل الناس من باب واحد ويخرجون من الباب الآخر ، وبذلك يرتاح الراكب والكسارى ..

قلت : قسماً بالله لو وقع هذا فى مصر ما دفع التذاكر غير ثلاثة ..
نحتاج إلى الأخلاق أولاً يا سيدى الراكب ..

قال الراكب : بل نحتاج إلى مواصلات أولاً لتكون عندنا أخلاق .. نحتاج الأخلاق إلى ظروف تبنى فيها أولاً ..

● سائق التاكسى

- أنا بصراحة مستحرم فى رمضان .
- ده كلام إيه ده .. يعنى إيه مستحرم .. الشغل شغل .. حترجع فى كلامك بعد مامشينا كل ده ..
- وهو بياكل كتير فى الشغلة ..
- ما أعرفش .. كل أصحابه فهمونا أنه ما بيمشيش ورقة من مطرحها إلا إذا كل ..
- مصيبة يا أخى .. ما فيش حد بيشغل لوجه الله ..
- عشان ما تظلموش لاحظ أن فيه مكسب .. هوه عارف أنت حاتكسب أد إيه .. هو كمان ضرورى يكسب ..
- يا يكسب يا يعرقلها .. يا ياخذ رشوة .
- - ليه ليه ليه .. ماعدش اسمها كده .. اتغير اسمها .. بيدلعوها دلوقت .. بيسموها تعاون .. بيسموها تسهيل .. تشهيل ..
الحوار يدور فى الجزء الخلقى من السيارة ، سمعه بالصدفة ، لا يعتمد

أن يستمع لما يقوله الزبائن ، ليس سائق تاكسى من أبناء هذا الزمان الذى ذهب فيه الأدب ، وثمة سبب آخر ، لا تدع له قيادة التاكسى فى مدينة كالقاهرة أى فرصة لسمع ما يقوله الراكب أو حتى يرد عليه .. تلتهب أعصابه كلها على عجلة القيادة فى محاولة يائسة ومستميتة للسير وسط هذا الجحيم من سيارات الأجرة والملاكى والنقل والكارو والعجل وعربات اليد والمشاة والحمير والبغال والخيل والمتسكعين والأترية والمطبات .. لم تكن القاهرة هكذا أبدًا .. منذ ثلاثين عامًا وهو يشتغل سائقًا للتاكسى فى العاصمة . كل شكل القاهرة غير شكلها الآن ، كانت مهنته لها هيبتها زمان . كان السائق محترمًا والراكب محترمًا .. رحم الله الأيام القديمة الطيبة .. ضاعت اليوم هيبة الراكب والسائق ، وصار الاثنان أقرب إلى هذه الشخصيات المهزوزة التى لا تكف عن الترقص وهز وسطها فى التليفزيون ..

أشعل أحد الراكبين سيجارته والساعة تجاوزت الثالثة بعد الظهر .. وتطأير الدخان فوصل لأنفه وأحس بالغضب .. صائون صائمون .. لماذا لا يكتبون فاطرون فاطرون فهذا أقرب إلى الصدق ..

— حاسب يا أسطى ..

قال له حاسب فى الإشارة بعد أن أضاءت العلامة الخضراء .. وسار قليلاً فثار الراكب ومعه زميله .. أراد أن يقول لها أنه لا يمكن أن يتوقف فى الإشارة ولكنه عدل .. ضغط فرامل السيارة وتوقف .. ألقيا إليه النقود باحتقار فتناولها وسار .

اشتغل أول مرة سائقًا عند أحد الباشوات ، وتعلم أصول القيادة الحقيقية ، إذا كان يسير على اليسار فيستحيل عليه أن يسرق أحدًا ويتخطاه ويسير إلى يمينه ، وإذا سار لم يزد على أربعين أو ثلاثين كيلو مترًا . كان متهورًا فى البداية ولكن الباشا الطيب رحمه الله وأحسن إليه

أفهمه أن السرعة لن تؤدي إلا إلى الخطر ، والفرق دقائق ، ثلاثون عامًا لم يرتكب فيها مخالفة واحدة .. لو عاش الباشا لما تركه واشتغل سائقًا للتاكسي .. يسير في حاله ثم ينتبه على أتوبيس أحمر من اليمين ، وأتوبيس أزرق من اليسار وكأن الاثنان قد استخفها المرح فراحا يتسابقان ..

والخشر وسطها فهدأ من سرعته فرأى أنها سيأكلانه حتمًا ، وعاد يزيد من سرعته ليرق من بينها وهو يسب الملة .. أستغفر الله العظيم .. كيف يصوم الإنسان هذه الأيام ، إن الأسباب الداعية إلى انهيار الأعصاب والوقوف على مشارف الجنون أكثر من أسباب التهذؤة .. كيف حصل هذان السائقان على رخصتهما .. نصف من يقودون السيارات اليوم يبتكرون من عندهم قواعد جديدة للقيادة ، ولا تفهم أبدًا كيف حصل الواحد منهم على رخصة القيادة ، ولا تدرى في أى عربخانة تعلم قيادة السيارات ، ولا تعرف من أين جاء بالسيارة ولا كيف يقودها بهذه اللامبالاة والاستهتار ..

– تاكسي ..

توقف وركب شاب وفتاة ..

– الدق ..

عاد يستدير ويمضى .. الناس تعبر الشارع وتحتاج إلى أن تزيحها بالسيارة نفسها .. يضرب الكلاكس فلا يتحرك أحدًا .. يعبر الناس الشوارع كما لو كانوا يسرون في صالة بيوتهم وهم في الطريق إلى غرفة النوم .. لا يسرع أحدهم ولا يقيم اعتبارا للسيارات أو مناطق عبور المشاة ..

الشارع يبدو مثل سلطانية من الشورية التي اختلط فيها اللحم بالمرق

وبالأرز بالخبز... كل شيء يتحرك حركة هلامية عشواء متخبطة بغير قواعد ولا أصول ..

ضاعت الأصول في هذا الزمن قفل على الدنيا سلام .. المرأة أمامه وزجاج السيارة الخلقى مضرب ويحتاج إلى أن ينبه عليهم في الجراج لمسحه .. عاد ينظر إلى المرأة ففوجيء بأن الشاب يقبل الفتاة التي تركيب معه .. أريكه هذا الموقف إرباكاً شديداً .. صعد الدم إلى رأسه وأحس أنه لا يتحكم جيداً في عجلة القيادة .. في رمضان .. ألا يستطيعان الانتظار بعد الإفطار .. أى مصيبة يجئها له اليوم ..

طاخ - اتبه على مطب هائل في الطريق فانت عظام السيارة وهى تهد فيه .. التفت إلى المطب ونسى القبلة مؤقتاً .. لم يعد في القاهرة شارع واحد ليس فيه أقل من ألف مطب .. رحم الله شوارع القاهرة القديمة .. أطفئت المدينة أثناء الحرب فكانوا يسيرون على ضوء لمعان الأسفلت ، واليوم لا يجلو شارع من مطب يتلوه مقب .. تل مرتفع من الزفت تليه حفرة غائرة من الزفت .. شوارع صنعت من الزفت وصارت وحالتها زفت ولا أمل في شيء .. يصلحون الشارع مرة ومرتين وعشر مرات وفي كل مرة يصلحونه كأنهم يضحكون عليه .. طصلقة وإهمال ينتهيان بك إلى أن تنفكك عظام سيارتك كل عشرة أيام ، كان يربط السيارة زمان كل شهرين ، فصار اليوم يزيئها ويربطها كل أسبوعين .. صارت الحياة جحيماً فلا حول ولا قوة إلا بالله .. لم يزل جحيم القبلات مستمراً في المقعد الخلفي .. فكر أن يتوقف فجأة ويلعن خاش آبائهما ويطردهما من السيارة ، لولا أنه رأى الشاب في المرأة يطيل شعره مثل شعر البنات ، ورأى البنت تقص شعرها كالرجال .. هذا خنفس من خنافس هذا الزمن .. وهو يخاف من الخنافس الطبيعية ويشمئز منها فكيف يواجه هذا الخنفس الصناعى .. ربما شتمه أو ضربه .. سأل

لانفاذهما من جحيم القبلات ..

- فين في الدق .. ؟

قالت هي اسم الشارع .. وهمست للشاب شيئاً فضحك وهو يقول :

- لا تهتمى به .. الرجل عجوز .. وهذه مسألة شخصية بيننا ..

كانت لهجته ليست مصرية فزاد انقباض قلبه وأيقن أنه اصطحب بوجه مشنوم وأن اليوم كله شر ..

طاخ - عادت السيارة تنهد في مطب آخر .. صعدت مقباً بعده .. واختلس طريقه من اليمين تاكسى مسرع فكاد الرفرف يطير لولا ستر الله .. وعادت السيارات تمرق إلى جواره وتتلوى حوله كالثعابين غير آبهة بقواعد المرور .. وطرقت قبلة في الجزء الخلفى من السيارة فزاد تشاؤمه وأيقن أن حادثاً سيقع له اليوم ... وضغط على الفرامل وتوقف والتفت إلى الخنفس وزميلته الخنفسة وقال بهدوء شديد :

- نفذ البنزين فابحثا عن سيارة ثانية ..

ونزل الإثنان بهدوء .. وعاد هو يسير ..

طاخ .. طيخ .. طوخ .. طروخ .. طريخ .. أصوات المطبات حسب عمقها وسعتها ودرجة انخفاضها ..

أصبح السير وسط شوارع القاهرة عذاباً دونه عذاب الحريق .. إن الجلد يتمزق في الحريق أولاً ، أما هذا النوع من العذاب فتحترق فيه الأعصاب .. أولاً .. تاكسى .. توقف .. شبرا .. تحرك .. دخل شارع شبرا وبدأ السباحة وسط محيط يمتلىء بالحيتان وأسماك القرش والصخور والعواصف .. الموج سيارات وأتربة وناس تعبر الشارع ، وفكرة الغرق في دم الإنسان تصادفك ألف مرة .. هجم عليه أوتوييس بمقطورة ..

أقلت منه بمعجزة .. هجم عليه أوتوبيس أزرق .. إحتك برفرف السيارة احتكاً خفيفاً .. وطوال الوقت ترفعل أمواج المطبات وتخفضك .. لا تعرف هل تلتفت إلى الناس ، أم المطبات ، أم السيارات ، أم الأخطار .. والمخالفات ترف عليك .. إذا كانت سيارتان ، واحدة ملاكى وواحدة تاكسى ، وارتكبت كل واحدة من السيارتين نفس التصرف ، تحركت يد عسكرى المرور بمخالفة للتاكسى ، أما الملاكى فيقول فى نفسه وأنا مالى .. يطلع «مهم» وأروح فى داهية ..

الساعة تقترب من الرابعة .. عائد من شيرا .. غارق وسط العرق وكل جسمه يرتعش ووجهه أصفر ونفسه مكروش وحاجته لسيجارة أشد من حاجته للتنفس .. ثمة شخصخة فى السيارة تؤكد أنها تحتاج إلى مساعد .. غداً تدوخ فى الصيام على قطع الغيار ، وقطع الغيار عند القطاع العام بيعت كلها يا أسطة ، فإذا كنت صديقاً أشار لك على محلات القطاع الخاص التى تباع فيها وقال لك تستطيع أن تشتريها من هناك .. وهناك هذه ترفع السعر ثلاثة أضعاف .. ثم يصدر أخيراً قانون بمعاقبة السائق الذى لا يقف ..

طيب .. أنا لن أقف ..

الناس يصرخون علىّ فى الشوارع ..:

- تاكسى .. تاكسى ..

وأنا أشير لقمى قائلاً : رايح أفطر .. بلاش أتسمم .. بلاش أكل ..

داخلى غضب هائل ، وأمنية أن تسجنى مصلحة المرور فأنجو من العمل فى التاكسى وارتاح عدة أيام .. أرتاح .. أرتاح يا ناس ..

● السجن

زرعت ثلاث شجيرات فى العام الثانى من دخولى السجن ، وجلست تحت ظلها فى العام السابع . وأكلت من ثمارها فى العام العاشر . وأصابنى الدوار تحتها حين جاءنى نبأ قوار الإفراج .. فاجأنى القرار .. أعترف ..

كنت قد رتبت حياتى على الاستقرار فى السجن .. ويوماً بعد يوم .. راحت بناييع الأحلام تجف فى نفسى مع مجد الشمس الآفلة . حتى جاءت لحظة أمنت فيها أن الكون الحقيقى هو السجن ، وصار صعباً على أن أصدق وجود شىء خارجه . ليس لى من البشر أحد .

فسخت خطبتى بعد ستة أشهر وماتت أمى بعد دخولى السجن بثلاث سنوات . ولحقها أبى بعد ست سنوات ، وتزوج أخى فى العام السابع من دخولى ، غير أنه كف عن الكتابة فى العام العاشر ، ثم وظن إبنى لن أخرج فانقطع عن الكتابة . أغضبى تصرفه فى البداية ، ثم

بجثت له عن عذر في نفسي ، ثم مضى الزمن ونسيته .. صار عالمى هو السجن ..

كنت أعزى نفسي في نهاية الحوار مع نفسي بأن الحكومة تنفق على .. وهذا امتياز لا تعطيه لكل واحد .. وفجأة وجدت نفسي حرا .. شملنى قرار الإفراج .. كنت أتهياً للصوم داخل السجن حين بلغنى النبأ .. كنت أجلس أمام طعام السحور عارفاً أن هذا رمضان الرابع عشر على نفقة الحكومة . ثم بلغنى النبأ .. وعزفت نفسي عن الطعام وفكرت في الأشجار التي زرعتها في السجن وقلت ستفتقدنى وأجهشت بالبكاء ..

حدث لى ما يحدث للجنين حين يولد .. يخرج من ظلمة البطن وضيقها إلى سعة الحياة ونورها فينخرط في البكاء .. لا تحمل رثائه دفعة الهواء المفاجيء فتنهمر دموعه .

أكنت أولد ساعتها ؟

أحسست بالدوار والخوف والفرح حين أغلق باب السجن وأنا خارجه ..

أحببت كل شيء فجأة .. كل شيء .. أعمدة التلغراف وأرصفت الطرق ومحطات القطار وحيوانات الفلاحين ..

أحببت كل شيء وسأحت كل شيء وتركت مرارة السجن في السجن وخرجت ..

يا رب .. لماذا خلقت الحرية بهذه العذوبة ..

أخيراً .. هذه مدينة القاهرة !

حدقت بعينى في المدينة .. لم أكن أريد أن ارمش . لا أريد لهذه الثانية من إغماض الجفن أن تفوت على منظر القاهرة .. احتضنت المدينة

كلها بقلبي وأخرجت منديلي وعاودت البكاء .. صار عندي الآن منديل
خاص أستخذه ، ومن قبل كانت الشمس منديلا المشترك الأكبر .
تساءلت عن ذنبي في حق هذه المدينة ، لأحرم منها ١٤ عامًا ،
أعترف أنني أرسلت نقودًا لزوجة صديق معتقل .. لم أرسل إليها غير
خمسة عشرة جنيهاً .. خشيت أن تموت أو تبيع جسدها .. فسرت
الشفقة العميقة تجاه صديقي تفسيرًا سياسيًا وألحقت معه في نفس العام
الدراسي ونفس الفصل ، الحمد لله على أى حال . دفعت عامًا من
عمرى عن كل جنيه ، وبقى للحكومة عندنا جنيه ، تنازلت عنه فلها
الشكر ..

لو قدر لى أن يعود الزمن إلى الخلف وتكرر هذا لأرسلت إليها
عشرين جنيهاً بدلاً مما أرسلته .. كان يبقى لنا عند الحكومة ستة جنيهاً
وهذا أفضل من جنيه ..
أسير في شوارع المدينة ..

أحس بالسكينة والصفاء والسيادة ، وأتأمل الأشجار والزهور
والنساء والبسات .. وأستمع لهذه الموسيقى المنبعثة من الوجود .. وأشعر
بالخوف والخفة أيضًا .. يساورني شعور مادمى بأننى خفيف إلى الحد الذى
ينبغى فيه أن أمشى ببطء وتناقل كى لا أسبح على القمر .. الأرض
أجمل من القمر بالتأكيد وفرحتى بشهر رمضان لا توصف ، أسير ..
أتحرك .. مطلق السراح .. قادرًا على السير فى أى اتجاه .. للجنوب أو
الشمال .. أستطيع التوقف كما أريد . أجلس فى أى مقهى أحبه ، أركب
الترام بلا هدف .. أنزل منه بلا سبب .. أذهب إلى شبرا أو مصر
الجديدة أزور الحسين أو السيدة .. لا يوقفنى أحد ولا يحسب خطوى
أحد ولا يحدد تصرفاتى أحد .. أى شىء أريده يتحقق .. تدهشنى
قدرتى الجديدة وأتساءل طيلة الوقت :

- أيمكن أن يسكر الإنسان من مجرد استنشاق الهواء ؟

هذا هو شارعُ فؤاد .. تغير اسمه صار شارع ٢٦ يوليو . تغير الشارع هو الآخر .. لم يعد الترام يقطعه نصفين كما كان .. أدهشتني كثرة الألوان .. أنتطوى الدنيا على كل هذه الألوان .. الدكاكين بيضاء وخضراء وصفراء .. وفساتين النساء حمراء وزرقاء وبنفسجية ووجوه البنات ملونة .. قوس قزح من الألوان .. ألف قوس قزح .. رأيت هذا القوس في حياتي مرة وأنا طفل .. وتأكدت في السجن أنه كان حلماً ، وأمنت أنه لا يوجد ..

تدفىء الألوان بصرى وتخطفه وتثيره وتثيرني فأحس كلما نظرت إلى لون منها أنى أتدثر به .. لم أكن أرى في السجن كله غير لون واحد .. لون جدران غرفتي ، وهو لون حدقت فيه ١٤ عاماً بشكل متصل حتى نسيت لونه الآن ، أو لعلى لا أريد أن أذكره .. وجاء على يوم أحسست فيه أن بصرى مسجون هو الآخر ، ليس مسجوناً وإنما محدد بهذه الحيطان الأربع التي ولدت بلا لون .. نسيت معنى الألوان ومذاقها وطعمها في السجن .. بعد فترة معينة في السجن تشحب ذكرياتك خارجه وتبدأ الشك أصلاً في وجود الحرية .. ويشرك منظر الطيور المهاجرة ، تحس نحوها بالغيرة ، ما أجمل أن يكون الإنسان طائراً ليهاجر ، وهكذا يهبط الإنسان من إنسانيته ويختار درجة أقل في سلم الخليقة ليستمتع بالحرية .. صدمتني الألوان في اليوم الأول ، وأدهشني شيء آخر في شوارع القاهرة .. كل هذا العدد من الناس .. رجال ونساء .. وشيوخ وعمال . مع سيارات وحيوانات وتراب وبيوت وزحام .. زحام عظيم أحسست فيه ببعض الأمان وبعض الخوف .. أنا اليوم جزء من هذا الشكل العظيم المزدحم ، رغم ذلك أنا جزء متفرد يملك حرته . وفي السجن كنا نعيش سنوات لا نرى فيها وجهاً جديداً ،

ولم يكن أى شائش فى السجون رجلاً بالنسبة إلينا ، إنما كان قوة طبيعية نحاول تحريكها فى اتجاه مصلحتنا مثلما يحلم المرء بتحريك السحاب ونزول المطر .. حمدًا لله .. رحت أذفىء قلبى بهذه الألوان .. بعد اللون الأصفر الباهت للصحراء الممتدة بلا معنى تجىء كل هذه الألوان .. أحيانًا يحس المرء فى السجن أن أثرًا فى الأرض يؤنس وحشته .. أثرًا يشبه حبلاً جره أحد ، وتعرف من طول مكثك أن هذا الأثر لثعبان مر هنا ، ولم تكن الثعابين تخيف هناك .. أحيانًا تدفعك الوحدة إلى الرغبة فى عقد الصداقة مع الثعابين .

أسير فى شوارع المدينة ..

أحس بالسكينة ..

ليست هناك امرأة قبيحة .. حتى هذه السيدة التى ابيض شعرها وتهدلت ملامح وجهها كانت تبدو لى جميلة .. كل النساء جميلات بغير حدود . أىكون السبب فى هذا أنى عشت ١٤ سنة لم أر فيها وجهًا لامرأة حتى نسيت هذه النظرة الناقدة التى تترى للرجال من كثرة التأمل .. كنت أستقبل كل وجه لامرأة أراه فى الطريق ، مثلما أستقبل عطية كبرى من عطايا الخالق . لا إله إلا الله .. هذه الشفاه الغلاظ والأنف الأفتس والوجه الأسود والعينان الضيقتان .. ما أجمله من وجه .. أيقنت أن الله لم يخلق امرأة قبيحة ..

يثيرنى إحساسى أنى قادر على السير كما أشاء فى أى اتجاه ولأى هدف أحده أنا .. يثيرنى إحساسى أنى حر .. وتبدو لى هذه الحرية مرة المذاق إذ تكشف لعينى إلى أى حد تنقصنى الروابط التى تربط الإنسان بالدنيا . حر أنا ولكن أحدًا لا يحتاج إلى ولا يريدنى .. حر أنا حرية لا حد لها حتى إننى لا أشعر بثقلى على الأرض .. انثلمت قوانين الجاذبية بالنسبة لى .. ثم أقبل طفل .. مر إلى جوارى وهو يمسك يد والده ويرتدى بدلة

ضابط .. ربت على رأسه بحنو فرقع الطفل بصره نحوى .. عظمته
بالتحية العسكرية فابتسم ورد تحيتي وعاد يسير .. حمدًا لله .. اخترت لى
صديقًا لا أعرف اسمه .

عشت أربعة عشر عامًا فى دنيا ليس فيها طفل واحد .. حتى صرت
أحس بالدهشة من مرأى الأطفال ، ويخيل إلى أنهم رجال فى حجم
مصفر ..

لا أشعر بثقل على الأرض . ينقصنى عبء تلك العلاقات الإنسانية
التي تعوق سير الإنسان .. تنقصنى تلك الدموع وذلك الوداع والعتاب
والمرح ، وكل ما يبدى الإنسان عطفه عليه وكل ما يحسب حسابه كلما
هم بمحركة .. تعوزنى تلك الروابط التي تثبت المرة بالآخرين وتجعله ثقيلًا
وتجعل لحياته معنى ، ماتت أمى وأنا فى السجن وبعدها لم يعد لى
أحد ..

لو عاشت أمى لذهبت إليها وألقيت بنفسى عند قدميها وانخرطت فى
البكاء .. غادرتها وعمرى ٢٦ عامًا وأعود إلى قبرها وقد بلغ عمرى
الأربعين .. تسقط من ذاكرتى سنوات السجن تمامًا ولا أصدق أنني فى
الأربعين .. ضاعت أجمل أعوام العمر فحمدًا لله على أى حال ..

أسير فى شوارع المدينة .. ؟

رغم حبي العظيم للسيارات والزحام والناس والضجيج والروائح ،
كانت السيارات ترعبنى ويجعلنى صوت نقيرها أقفز من مكاني وأرتعش ..
صوت غريب ومتباين ، ولكل سيارة صوت يختلف عن أصوات
السيارات الأخرى ، مثلما تختلف بصوات أصابع الناس . مثل قروى يهبط
المدينة لأول مرة فى حياته كنت أحس .. يبهرنى الزحام وتخيفنى السيارات
وتلتف ساقاى وأنا أسير . ها هو حى الحسين .. بائع الفطير والكباب

والكثافة والبقاوة والكتب وقرطيس الفول والترمس وحب العزيز
والمقاهى والناس والبيوت والمسابع والعصى والبخور ، وروائح الخي
العتيق بهذا المزيج من رائحة الشواء والعطارة والبخور والعود .. كنت
أعبر الشارع حين صرخت إلى جوارى سيارة وكادت تمر فوقى .. صرخ
السائق وهو يتوقف ..

- حيوان .. ماشى فى صحرا؟!

التفت إليه ورفعت يدي لأقول له إننى لست حيواناً .. وإنه
لا يعرف الصحراء مثلى .. وإنه لو عاش أربعة عشر عاماً بها لما عرف
كيف ..

ثم نكست رأسى ولم أقل شيئاً ..

جرحتنى كلمته .. جرحتنى بعمق ، أثارت داخلى سؤالاً أطل
برأسه .. ما هذا .. أتوانى لم أعد أعرف حتى المشى؟!

● الرقيب

كل إنسان داخله قلب وكبد وطحال ومرارة
وبنكرياس ورقيب ..

نعم .. كل إنسان داخله رقيب ..

وهذا الرقيب خفي لا يرى ، مكانه مكان
الضمير ، في نفس الموضع الذى كان فيه الضمير ،
بعبارة أخرى هذا الرقيب هو الضمير المعاصر ..
أو بعبارة أدق هو الضمير الحديث ..

وهو يأمر الإنسان بما فيه خيره الظاهر ومصالحته ، ويحذره من الشر
والضر ، وهو يشطب تصرفاته الخرقاء ويوجهه الوجهة الصحيحة ، أو
هكذا يدعى ..

ويختلف وضع هذا الرقيب باختلاف طبيعة الإنسان ، لو كان
الإنسان طيباً كان الرقيب طيباً ، وإذا كان نصف نصف كان الرقيب
نصف نصف . هناك رقيب للعمل ورقيب للزوجة ورقيب للأصدقاء
.. ورقيب للأقارب ورقيب للصوم ورقيب للإفطار ورقيب للنوم ورقيب

للدنيا ورقيب للآخرة ..

والرقيب كلمة أصلها ناشيء من المراقبة يقال راقب الشيء أى دوام النظر إلى الشيء ، وانقطع للتأمل فيه ، أى عس عليه ، وكلمة عس يعس فهو من العسس .. أى من الشرطة .. وهذا هو المفهوم القديم للرقيب ، أما الرقيب الحديث فهو داخلك وداخلي ، ليس خارجاً عنك ولا عنى ، هو بمثابة الضمير المعاصر أو الحديث ، وبغيره لا يحلو الحديث ، ويضل الإنسان فى المسالك ، وينزلق تَوّاً إلى المهالك ..

قال لى رقيب العمل :

- المدير العام غاضب عليك لأنك فى حفل تكريمه ألقىت كلمة باردة .. قلت : يا أخى الرقيب أنا مدير أقدم منه وأحق منه بالترقية والعلاوة ، ولولا الزمن الأغبر لكنت مكانه ولكان حفل التكريم مقاماً لى ولقال هو كلمة تكريم لى ..

قال لى رقيب العمل : خطأ . أنت تتكلم خطأ .. صار الرجل مديراً عاما قبلك ، انتهى الأمر وكان الواجب أن تلقى كلمة أكثر حرارة .. قلت لرقيب العمل : كنت مجروحاً من الداخل وحاقدًا عليه . قدر موقفى وإحساسى ..

قال : لا يهم إحسانك .. المهم إحساسه هو .. درجته الوظيفية أعلى منك والعين لا تعلق على الحاجب .. الحاجب أعلى من العين .. وهو قد صار حاجباً وأنت عين وعليك أن تلزم مكانك منعاً للأذى ودفعاً للضرر وجلباً للخير ..

وقال لى رقيب الزوجة : هل تنوى أن تقول لزوجتك أن طعامها ردىء .. هل جننت .. زوجتك وأم عيالك وخادمتك وستك فى نفس الوقت .. والمرأة التى تعيش نصف عمرك معها ثم تنوى أن تحدّثها عن

طعامها الرديء .. اشطب فوراً هذه الكلمة وابتسم وقل لها : طعامك
يخبث ..

قلت له - وجهي يتقلص من ألم ابتلاع الطعام فكيف أقول لها
طعامك يخبث ..

قال - الكلمة لها وجهان .. يخبث من الجنون .. أو من الجنان ..
ستفهم هي أنك مسرور منها .. وتكون أنت قد شتمتها في نفس
الوقت .. وبذلك نكون قد قلنا رأينا ومنعنا الأذى وددفنا الضرر وجلبنا
الخير ..

وقال لي رقيب الأصدقاء : حذرتك أن تقول لأصدقائك رأيك
فيهم .. أو تحفظهم .. لا يعتقد الإنسان أنه أخطأ حتى ولو ارتكب أعتى
الجرائم ..

قلت له - كان الصديق مخطئاً ، وكان خطؤه أكبر من عين
الشمس ..

قال : مازلت لا تفهمنى .. ماذا كنت تفعل بدونى .. ليست
المشكلة هي عين الشمس أو عين الضل .. المشكلة أن الإنسان يجب
نفسه ويتعاطف معها ، ومهما فعلت نفسه فإنه يراها في النهاية بريئة غاية
البراءة .. ألم تعرف ماذا قال آل كابوني الذي قتل ألف واحد حين
أمسكوه ..

قلت له : ماذا قال ... ؟

قال : صرح وهم يمسكونه بالدهشة لأنهم يمسكونه .. وقال إنه
يجب الناس ويشفق عليهم وطوال عمره لم يؤذهم فما هو السر في القبض
عليه وإزعاجه .. إنني أتضحك أن تفهم الناس ، وأقول لك ما أقول
منعاً للأذى وددفناً للضرر وجلباً للخير ..

وقال لى رقيب الصوم : تعال نسلى الصيام بشراء مسبحة والتسكع
فى الشوارع والتأمل فى عباد الله ..

قلت لرقيب الصوم : تزوغ عيني فى رمضان وأخشى أن يفسد
الصوم ..

قال : تعال ولا تكن متحجر الرأس ، إن النظرة الأولى لك والثانية
عليك .. سنطيل النظرة الأولى فتصير فى طول الدهر .. هذه النظرة
الأولى من حقل .. ربما كان القادم أو القادمة أسداً أو ضبعاً أو فهذاً
يخشى أذاه .. وسوف نتقى المسبحة فى لون البدلة أو الكرافة حفاظاً على
الوجاهة .. والصوم وجاهة إن كنت لا تعلم ..

قلت للرقيب : أنت متحرر أكثر منى ..

قال : أنا الرقيب المعاصر .. والمعاصرة من المعاشة .. مودرن أنا
وأنت متخلف .. أنا من العصر الذرى ، وأنت من العصر القديم ، وأنا
أنصحك بما فيه نفعك وأدراً عنك الضرر وأجنبك المشاكل وأفرشك
وأسليك وأهون عليك الصيام والقيام ..

وقال لى رقيب الإفطار : حاول أن تعوض ما لم تأكله طوال الصوم
فى الإفطار والسحور .. ستأكل كأنك تأكل فى آخر زادك .. ابتلع والهط
ولا تتردد .. لقد صمنا معاً ومنتنا من الجوع وجربنا الهفتان ونريد الآن أن
نجرب الموت من الأكل ...

قال لى رقيب الدنيا والمشرف على شئون الآخرة هو الآخر : إعمل
لدنياك كأنك تموت غداً ، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبداً ..

قلت له : هذا عكس الحديث المأثور الشريف .. المفروض أن
يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبداً ، فلا يندلق عليها ولا يتهاقت ،

والمفروض أن يعمل الإنسان لآخرته كأنه يموت غدًا ، وبذلك لا يؤخر صلاة اليوم إلى الغد ..

قال الرقيب : كلامك صحيح ، ولكننا من أبناء هذا الزمان ، وأنا رقيب مودرن .. فلا تنس .. سنعمل للدنيا كأننا نموت غدًا . نخطف ما نلحق خطفه ونزدد ما نستطيع ازدراده ، ونتكالب على المنافع ، ونفر من التضحيات والمغارم .. أما الآخرة فمجالها بعيد وحسابها بعيد ، وسنقول فيها ما يقوله أهل التسوية :- «عندما تأتى ، يحلها ألف حلال» .

قلت له : هذا رأيك ..

قال : نعم ..

قلت له : كأنك تنصح بشراء قطعة الأرض في الهرم مهما وقع من الغرم على أصحابها الأيتام ..

قال : تمامًا ..

قلت : يا أخى أنا مستحرم والله ..

قال : يفقدنا التردد الفرصة ، والاستحرام لا مجال له في هذا الصراع القائم في غابة الدنيا ، وأنت في الحياة إما آكل أو مأكول .. إما حيوان مفترس أو غزال لحمه طرى ..

قلت : لحمى أنا لا يؤكل ، ليس كل الطير الذى يؤكل لحمه .

قال : بصفتى الرقيب المودرن .. أنصحك بما يدفع الضرر ويحلب المنافع ..

قلت : تأمرنى بمزيد من الظلم ..

قال : بل قل آمرك بمزيد من اليقظة والدقة .. يجب أن تتطور ..
نحن أبناء هذا الزمان يا سيدي وقد تغير معنى الكلمات ونحن نتحدث
اليوم بلغة أنشئت لدنيا الأمس ..

أحياناً يتصور الإنسان أن الخطيئة كسب .. طاوعت الرقيب
وأكسب كل يوم هذا النوع من المكسب .. غير أنه في الجزء البعيد من
روحي أحس إحساساً قويا أن هذا الرقيب بإخفائه الحقيقة عني
سيضيعني .. أحس أيضاً أنه لابد من إلغاء الرقابة ..

● التكنولوجيا

التكنولوجيا هي علم أصول الصنعة الفنية ، أو
قل إنها فن أصول الصنعة العلمية ، والفن
معروف ، والأصول عند أهل الأصول لا تضيع ،
والصنعة عال العال ، ولكن الخامات هي
الفالسو ، والدنيا بخير ، وقسمًا عظيمًا يا بيك كان
الشغل سينتهى لولا أنني استيقظت مصدع الرأس
منحرف المزاج ، وأنا رجل يشتغل بالمزاج ، إذا
جاءنى المزاج اشتغلت ، وإذا تولى عنى انبعجت ..
وإذا انبعج المزاج توقفت ..

استمعت لكلامه وانصرفت ..

أقدم نفسى أولاً .. الشريط المحرم يقول أنا التكنولوجيا .. عبد الله
الدمهوجى .. بتعطيش الجيم فى الأولى وتعطيشها فى الثانية ، عدت من
بلاد الفرنجة ، بعد دراسات ليست أونطة ، عدت إلى بلدى الحبيب ،
وفى ذهنى كل غريب وعجيب ، عدت لأفيد العباد ، ببلوغ القصد

والمراد ، ولكن الناس أكثرهم لا يعلمون ، ولا يتعلمون ، ولا أدرى
لماذا هم مبلمون ، ويقولون صائمون صائمون. ولا هم صائمون
ولا يجنون .. وكما شعرت بخيبي وندامتى وضياح فني وتكنولوجيتي بين
أولاد جلدتي وبلدتي ، فكرت في الانتحار ، ثم عدلت وتذكرت بعض
الأشعار ، التي قيلت على سبيل التسلية والهزار ، منذ أربعين عامًا في
وضح النهار ، وكنا نقرأها فنضحك ونحن صغار ، ومع الأسف لم يتعلم
منها الكبار .. كانت هذه الأشعار تقول معارضة قصيدة يزيد بن ضبة
الثقفي التي يبدأ مطلعها بقوله :

سليمى تلك في العير قفى إن شئت أو سىرى
فعارضها حسين شفيق المصرى وقال :

زمان العير قد ولى	بكمبيل وحنطور
وزالا أو يــــزولان	بتمبيل ووابور
وما التبيل والوابور	في عصر الطياير
تقدم كل أهل الأرض	واحنا اللي ف تأخير
وغواصاتهم في الماء	كالقرموط والبورى
ونحن اللي مراكبنا	بقلع مثل طرطور
فأخيهم ميكانيكى	واشطرنا الفواخيرى

أتذكر هذه الأبيات كلما حزبنى الأمر ، واكتفنتى المشاكل ،
وأعرف أن الرغبة لم تكن صادقة في يوم من الأيام صدقتها هذه الأيام في
للحاق بركب التقدم والعلم ، غير أنني أعرف أن المشكلة أعمق من مجرد
الرغبة .. أعمل في مصر باحثًا .. يدخل عملي ضمن نطاق
التكنولوجيا ، وأفهم أن مشاكل التكنولوجيا تختلف من بلد إلى بلد ،
إن أوروبا تصرخ بسبب الفجوة التكنولوجية بينها وبين أمريكا . وهارولد
ويلسون - منذ خمس سنوات - يتحدث محذرًا من نظام للعبودية كنظام

اسبارطة ، يقتصر فيه دور أوروبا على إنتاج الجهاز التقليدى فى الاقتصاد الحديث ، وتنتج أمريكا الجهاز المتقدم المركب الذى ستكون له الكلمة العليا فى إملاء سياسة التصنيع ونوعيته ..

وفى دول العالم الثالث يصرخون من استنزاف العقول .. ودول أوروبا ترقب بعين الخوف هذه الأعداد المتزايدة من هجرة العلماء والفنيين والتكنولوجيين لأمريكا .. وثبتت الدراسة أن سبب هذه الهجرة ليس هو المرتب المرتفع الذى يقدمه العالم الجديد فقط .. وإنما هناك سر آخر ، يتمثل فى أن الأعمال التى تثير فى الإنسان روح التحدى والمغامرة متاحة فى العالم الجديد أكثر منها فى العالم القديم ..

إن العقول بوجه عام مثل القلوب ، تتجه إلى حيث تجد التقدير ، وقد اقترح الخبراء الأمريكيون على أوروبا اقتراحًا ، قالوا : إن الفجوة التكنولوجية قد أسوء التعبير عنها ، إنها ليست فجوة تكنولوجية بقدر ما هى فجوة إدارية .. إن استنزاف العقول لا يحدث لمجرد أنهم يمتلكون تكنولوجيا متقدمة فى الولايات المتحدة فحسب ، بل لأن لديهم إدارة أكثر فعالية وعصرية .. هذا هو السبب الأصح فى رأيهم للمشكلة ..

وهنا نصل لمربط الفرس .. وعقدة العقد .. وآفة الآفات .. باحث أنا فى مصر .. باحث فى ظل نظام للإدارة ولد فى عهد خوفو ، وتطور فى عهد تحتمس ، وتقهقر فى عهد قمبب ، وتحنط فى عهد التركى ايواظ .. ومرت عليه عصور ودهور ، فازداد نعاسًا على نعاس ، اجرب جلده وابيض عقله واسودت صفحاته .. نظام للإدارة يعتمد على حركة الورق لا حركة الذهن ، وعلى ضرورة امضاء الرئيس المكتبى لا على ضرورة إنجاز شىء ما .. نظام للإدارة هو بعينه الشطارة .. وإن كانت شطارة لا تستند لعلم ، ولا تقف على أقدام من

المنطق ، ولا تصمد لأبسط امتحان من امتحانات الحياة .. ولقد تحدث المصلحون في مصر عن هز الجهاز الإدارى ، واعتقد أن السبيل الوحيد الجاد لكى يمارس واحد مثل عمله الذى خلقه الله له .. هو إنشاء نظام جديد للإدارة .. نظام يصلح لهذه السنوات التى نعيشها ، وهى سنوات تقرب من القرن الحادى والعشرين ..

أعتقد أن نظرة كثير من الناس فى مصر للإدارة تكاد تنحصر فى كونها إمارة .. المدير هو الأمر والمنظم ، والإدارة هى الأبهة ، وهى السيادة ، وهى سر أسرار التخطيط التى اكتشفها زميل مصرى قديم .. وهى التعويق والتثيت لكل ما هو معوق .. وهى دفع الجزية لتركيا حتى سنة ١٩٦٠ ، ألم نكتشف أننا ظللنا ندفع الجزية لتركيا حتى عشر سنوات خلت ، رغم مرور ثمانى سنوات على الثورة المصرية .. لماذا حدث ما حدث .. أبداً .. عبثاً تحاول اكتشاف مسئول عن ذلك .. المسئول هو نظام الإدارة .. نظام الأوراق التى تذهب وتجيء وتحكم الإنسان وتتحكم فيه وقد خلقها الله أساساً لتسهيل عمل الإنسان .

والإدارة فى نهاية الأمر هى البوابة التى ينتشر من خلالها التغيير إلى الأفضل .. التغيير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتكنولوجى ..

وعدم تطبيق الإدارة الكافية على الواقع ليس معناه إبقاء الواقع حراً ، إن هذا يعنى ببساطة السماح لقوة غير العقل أن تشكل الواقع .. وهذه القوة قد تكون عاطفة جامحة ، أو قد تكون جشعاً ، أو نزعة عدوانية ، أو كراهية أو جهلاً أو قصوراً ذاتياً ، أو تكون أى شىء آخر غير العقل ، وإذا لم يكن العقل هو الذى يحكم الإنسان ، فقد توقف الإنسان عن العمل بكل إمكانياته الممكنة ، وبدأ عصر انحداره ..

- المعمل مقفول ليه ؟

● أبدأ يا بيه .. عم درويش خد المفتاح في جييه وراح .

- راح فين ؟

● مش عارفين يا بيه .. أصله عهدة عليه وخاف بسببه .. جازيز راح
يصلى .. جازيز راح يفطر ..

- يقوم ياخذ المفتاح ويروح ، الخبرا اللي جايين دلوقت ، ناخدمهم
تقعدهم على قهوة لحد ما عم درويش يرجع ويفتح .. امشى اكسر
الباب ..

● دى مسئولية يا بيه .. أنا في عرضك .. أنا عندي أولاد .. أى
حاجة تضيع من المعمل أضيع أنا .. معلهش يا بيه ..

- معلهش يا تيه ..

أجلس منتظرًا عم درويش .. أنتظره من القرن الحادى عشر ..

● المكتئب

« أنا أفكر إذن أنا موجود »

نعتذر لديكارت .. من الصعب قبول كلمته بغير
تعديل ..

« أنا مكتئب إذن أنا موجود »

كلمة واحدة هي التي تغيرت
ذهب زمان الفكر وجاء عصر الكآبة .. والكآبة
مرض العصر الحديث ..

إن الفكر لا يمكن سجنه داخل قفص ولو من ذهب . أما الكآبة
فيمكن سجنها في القفص الصدري للإنسان .

ونحن نفر من كل ما يذكرنا بحرية السماء العريضة .. وإذن
نكتئب .. سوف تجد دائماً أنه في مكان ما ، وفي زمن ما ، ثمة خطأ
ما .. والبحث يجرى وقد تشكلت لجنة ..

لست أدري لماذا صار طعم الطعام نفسه بلا طعم ..

لماذا فقدت الأشياء دلالتها وصار الكلام صوتًا والصوت كلامًا ..
المفروض أن يعيش الإنسان فيحس بالسعادة .. السعادة هدف
الإنسان الحى .. وأى مبادئ أو مذاهب أو تجمعات لا تخدم هذه
الحقيقة فألما إلى السقوط ..

تقولون إنك تغالى قليلاً وتبالغ .. من الذى يبحث فينا عن
السعادة .. نحن لا نريد غير الراحة ..

سأوقع بالموافقة .. ولكنى أسأل : لماذا لا نحس بالراحة .. المفروض
أن تكون الحياة شيئًا يمكن احتماله . أما أن تصبح كل خطوة من
خطوات القدم أو الفكر، عناء قاسيًا وعبئًا ثقيلاً فأمر يؤكد أننا نعيش
مأساة ..

أستيقظ فتبدأ كآبتي ..

لا أكاد أفتح صنوبر المياه حتى ينهمر من الحنفية شلال من المياه
المعكرة .. أكتب قليلاً فإذا جففت ، جهى اكتشفت أن قماش الفوطه
من نوع ردىء ، يشبه السنفرة التى تمر بها على وجهك ..

وتزداد كآبتي ..

أرتدى القميص ، فأكتشف أن أزراره تكسرت بسبب الرداءة ،
ولو كانت أزرارًا قديمة لعاشت ، فكيف يقال إننا الآن فى أبدع زمان ،
وأن ليس فى الإمكان أروع مما كان ..

أضع قدمى فى الشراب فأكتشف أنه انقطع .. هل انقطع لأن
حركتى زادت مع تقدمى فى السن . هل يحتمل أننى أتشاقى الآن أكثر مما
كنت أفعل وأنا تلميذ فى ابتدائى .. كان الشراب يعيش أيامها شهورًا
طويلة فأصبح اليوم ينهار بعد أسبوع ..

ألبس الخذاء فيوجعني الجلد ويضغط على الأصابع .. حتى الجلد
قسا وازداد غلظة .. ولبت غلظته هذه مرادفة لقوة احتماله .. إنما صار
الجلد كشجر الجميز سواء بسواء .. تخن على قلة فائدة ..

أنزل إلى العمل وأتذكر المسيح .. لم يصلب هو ولكني أصلب يوميا
في انتظار الأوتوبيس ، ثم أتعرض لضغط داخله حتى تنسحق عظامي
وكرامتي وأحتاج لقطع غيار والسوق كما تعرف يخلو من قطع الغيار .

أجلس في مكتبي في العمل ولا أكاد أضع يدي على المكتب حتى
يهب التراب . أيقظت تراب الروتين وكان نائماً كالفتنة ..

وألعن نفسي كما لعنت الفتنة وتزداد كآبتي ..

والكتابة مرض العصر الحديث ، وأنا أنتمى للعصر الحديث
بالمرض ، ولا أستمتع بمزاياه إلا إذا دخلت السينما فشاهدت الشوارع
النظيفة والميادين الواسعة والبيوت الأنيقة في الأفلام الأوروبية ، وأعرف
بيني وبين نفسي أن هذا كله وهم ..

لم أسافر إلى أوروبا ولا أعرف هل أصدق ما يحكيه الذين سافروا
إليها أم لا ، إنهم يقسمون أن أحداً في أوروبا لا يرمى ببقايا الفسيخ أو
أوراق الملوخية في الشارع ، أيمكن أن يكون هناك مكان في الدنيا بهذه
النظافة التي نراها في الأفلام ، أم يتلخص الموضوع في أنهم عندما
يصورون شارعاً يختارون أنظف مكان فيه لتصويره .. تماماً مثلما يرصفون
شارعاً أمام بيت رئيس حكومة فيتخيل الرجل أن كل الشوارع مرصوفة
هكذا وناعمة .. لا أعرف ..

يخيل إليّ أن كل شيء في القرن العشرين وهم .. ورغم ذلك فأنا
أعيش هذا الوهم ، غير أنني أكتب .. وكلما زادت كآبتي تأكد
إحساسى بانتهائى للقرن العشرين ، ورغم انتهائى لهذا القرن ، فإن داخلي

ثغرة من الحنين للقرون السحيقة الماضية ، حين كان الإنسان يسكن في الجبال ويخرج للصيد .. ويغطي جسمه بجلود الحيوانات ويستخدم عظامها في الحرب ..

وكان كل شيء يبدو سهلاً ، لم تكن الحياة قد وصلت لتعقيدها الذي وصلت إليه ، وكان الإنسان يخرج لصيد الثور البري أو الخزيت .. وكان يقتل الثور البري ، أو يقتله الثور .. وفي كلا الحالين كان أحدهما يجد عشاءه وينام قرير العين .

أصوم معظم أيام رمضان ، وأفطر معظم أيام رمضان .. لا أعرف أيهما أكثر .. عدد أيام الصيام أم عدد أيام الإفطار .. أحياناً أحس أن الله لن يتقبل مني .. يبدو صومى كصوم رجل يؤدي واجباً عليه .. يكون قد مضى على نصف النهار وبقى على المغرب ساعتين أو ثلاث ، وأرى نفسي قد اكتأبت لأنني صائم .. وأمضى وراء خيط الكتابة مفتشاً عن السر في ذلك ، فأكتشف أنني أحس بالكبرياء . ثمة إحساس من الزهو والكبرياء ينتج من العبادة .. ولا أكاد أستشعر هذ الزهو حتى أفطر .. أعاقب نفسي بالإفطار فأزداد كتابة ..

ومثلاً أجهل حل مشكلتي مع نفسي ، وهى مشكلة تزيد من كآبتي ، فكذلك أجهل حل مشكلتي مع الحياة ..

اشترت قبصاً من الصوف . أحسست بالفرح العظيم لأنني اشترته .. الإحساس بالفرح في مصر جريمة لا بد من العقاب عليها .. نضحك في إحدى الجلسات ثم يتنبه أحد الجالسين للجريمة التي ارتكبت فيقول : « اللهم اجعله خيراً » .. يحس بغريزة مصرية قديمة أن الفرح ليس من حقه ..

غسلت القميص الذي اشترته .. كان واسعاً حين اشترته .. وضعته

في المياه ونشرته على الحبل وانتظرته حتى جف .. ذهبت به إلى المكوجي وحاولت ارتدائه بعد ذلك فكتشفت أنه يرفض .. رفض القميص أن يسمح لي بارتدائه .. انكمش بعد غسله إلى النصف أو أكثر .. لم أصدق أن غسله يمكن أن يؤدي به لما صار إليه .. صار القميص يشبه أحد قصان الأطفال .. أهديته لابن أخي الذي فرح به فرحاً عظيماً ورآه في نفس حجمه .. ولم أقل له إنه بعد أن يغسل مرة ثانية سيتحول إلى شقيقه الطفل المولود ..

اكتأبت ..

ذهبت أشتري من الجمعية التعاونية فرخة هولندية ذبحت كما يقولون بعد أن تشهدوا عليها .. وقفت في الطابور ساعتين .. وكنت صائماً فلما مرت ساعة على وقوفي مددت يدي إلى جيبي وأشعلت سيجارة ، أفطرت ببساطة من كثرة القريفة وطول الوقوف .. اكتأبت فقلت : تعوض الفرخة بعض كتابتي ، فأنا أضحي من أجلها .. وصلت إلى البائع فابتسم في وجهي وقال :

بيعت كل الفراخ فتعال غداً ..

أطفأت السيجارة وقلت : ليتني لم أفطر .. خذلتني الفرخة وخذلت نفسي وضيعت يوماً من صيام شهر لو صمت الدهر كله ما عوضته ..

سقط المطر أثناء الليل .. انزعجت واكتأبت .. إن البدلة الجديدة التي لا أملك غيرها يمكن أن تبتل ، وهي من القماش الذي ينكمش إذا ابتل ، قلت لنفسى : لو ظللت واقفاً تحت المطر هكذا فسوف أضطر لإهدائها لابن أخي مثلما فعلت بالقميص ، ولو حدث هذا فربما ذهبت إلى العمل بالبيجامة .. وهو أمر لا أظنهم سيوافقون عليه في المصلحة .. قلت : آخذ تاكسيا وأمرى إلى الله ، وتحسست النقود الموجودة في جيبي

وقلت : ليكن ما يكون .. أنقذ البدلة وأضحى بما في جيبي من النقود .. صرخت على تاكسى ليس فيه أحد فنظر الرجل أمامه وظل على سرعته .. رفض أن يتوقف .. قلت : لعله لم يسمع .. صرخت على التاكسى الثانى فلم يلتفت إلىّ وظل يمضى على سرعته .. واشتد هطول المطر وبدأت المياه تتسرب من البدلة إلى القميص .. وبحث بعينى عن مكان أختبىء فيه فلم أجده .. كانت كل البيوت من النوع الحديث الذى ليس فيه بلكونات ممتدة يمكن للإنسان أن يقف تحته إذا سقط المطر .. وارتفعت المياه فى الشارع ، وبدأت المياه تتسرب من الحذاء إلى الشراب .. وتصورت أن الحذاء يمكن أن ينكش هو الآخر فزاد قلقي وأحسست بالخوف .. قفزت إلى الرصيف فكانت المطبات فيه تمتلئ بالمياه .. وعدت أصرخ على كل تاكسى يمر ولكن أحداً لم يلتفت إلىّ ، وازدادت كآبتي ..

قلت : أخلع الجاكنة وأجرى فى الشارع عائداً إلى بيتي فربما كان جرى سبباً فى إنقاذ الجاكنة .. غير أننى اكتشفت عبث هذا الحل ، إن السحابة التى تمر تتسع فوق منطقة هى مدينة القاهرة ، ولا يمكن إنقاذ الجاكنة منها إلا إذا جريت بسرعة الضوء نحو الصعيد .. وقفت فى الشارع وقد فتحت الجاكنة وتهيأت لخلعها بغير أن أخلعها ، وكلما مر تاكسى جريت وراءه .. فى البداية كنت أصرخ : تاكسى .. فلما مر عشرون تاكسيا ولم يتوقف أحدها بدأت أجرى نحو كل تاكسى قادم وأنا أصرخ :

- والنبي يا تاكس ..

ثم قمت بتعديل خفيف للنداء .. قلت لعله كان يريد أن يعمل عملاً آخر ، لعل كلمة التاكسى تزعجه وتثيره .. سأقول له : يا بيه .. وهكذا رحلت أصرخ :

- والنبي يا بيه ..

لم يتوقف أحد .. وعدت أقول : ربنا يخليك .. اعمل معروف ..
الجاكتة .. أخيراً أقبل تاكسى قديم .. نوع من التاكسى الفيات الذى
كان يتسع لسبعة أشخاص ، كان قديماً وقد صدئت جوانبه وهيكله ،
وكان يسمع له من بعيد صوت خشخشة وهز وارتطام ..

وكان يسير ببطء شديد وكأنه يجر عجلاته جراً .. وجريت نحوه
وصرخت فيه مسترحماً راجياً أن يتوقف .. والتفت إلى سائقه العجوز
الكحكوك وصرخ :

- أوعى من سكتى .. ماعنديش فرامل ..

قلت له : زى بعضه .. ربنا يطول عمرك ..

قال : يطوله ليه .. ربنا ياخذنى .. بقول لك ماعنديش فرامل ..
أوعى من السكة ..

وعدت أتقهقر .. وأصابت قدمى خلال تقهقرى قطعة من الطين
اللزج فوجدت نفسى أجرى فى أرض الشارع بغير قصد منى ولا إرادة ،
ثم أرتمى فى النهاية على وجه الجاكتة .. ظلت راقداً وسط الطين ثلاث
ثوان أو أربعاً .. اكتب كثيراً .. ثم نهضت وخلعت الجاكتة وبدأت
أنظرها ليظير منها ما علق بها من الطين .. ثم توقف المطر فجأة .. وتوقف
لى تاكسى ناديته ..

بعد أن صار وقوفه بلا معنى توقف التاكسى ..

وتقولون لى : لا تكتب ..

لماذا لا أكتب ..

لماذا .. ؟

● المذنب

أدرك أن الله يعاقبه ..

نكس رأسه وأحس الخيرة والحجل والألم ..
امتعت روحه وظل وجهه على هدوئه وهو يتلقى
الخير .. لن تسافر هذا العام إلى المسجد الحرام .

كان أصدقاؤه يسألونه أى مسجد سيقصد فى ليلة القدر وكان يقول
بهدهو وثقة : المسجد الحرام ..

ويتهامس الأصدقاء : ما أعظم حظك .. تعتمر للمرة الثانية فى
رمضان .. ويتسم هو ويضيف .. يوافق يوم مولدى ليلة القدر هذا
العام .. بعد ثلاثة وثلاثين عاماً سيصادف عيد مولدى ليلة القدر مرة
انية . ولما كان من غير المنتظر أن نعيش ثلاثين عاماً أخرى غير الأربعين
تى عشناها .. ونحن نحمل هذا القدر من الهموم .. فهذه هى ليلة القدر
الوحيدة التى نصادفها فى العمر ..

كان واثقاً أنه سيذهب ..

ثم برز فجأة فى حياته ظرف قاهر .. وأدرك أنه لا يستطيع أن

يسافر .. نسجت ظروفه وذنوبه معاً ، طوال عام كامل ، نسيجاً محكمًا يتلخص في كلمة واحدة هي الرفض .. قالت له نفسه : تمنعك ظروف عملك من السفر .. ثم بصراحة أكثر .. من تكون أنت لتذهب إلى الله .. افترض يا أخى أن الله لا يريدك .. لو كان الله يريدك حقا لسافرت .. ولحظة بعد لحظة كان إحساسه أنه لن يسافر يزداد رسوخًا في نفسه ، لن يدخل المسجد الحرام هذا العام .. لن يصلي صلاة التسابيح في ليلة القدر في مقام إبراهيم بجانب حجارة الكعبة .. لن يحدث شيء من هذا كله ، انتهى الأمر وأفلتت منه رحلة الصلح مع الله .. وبدلاً من الجلوس في بيت الله حيث لا ترد أيدي السائلين ، سيجلس في بيت زوجته أمام زوجة لا تحدته إلا عن سوء تصرفه ..

أى مصير مرعب ينتظره .. ستحتفل زوجته بعيد ميلاده ، وستخطب خطبة قصيرة أو طويلة عن العمر الذى بلغ أرذله ، وعن الشعر الذى شاب معظمه ، وعن الجنون الذى يصيغ تصرفات الكهل ، وعن العقل الوحيد المفروض أن يتوج به صاحبنا نفسه ، ويتمثل هذا العقل فى أن يسلم لها كل نقوده ، ولا يغادر العمل إلا إلى البيت ، فإذا وصل إلى البيت ركع على قدميه وبدأ يبكى ويقسم أنه يجيها ، وأنه يتنفس لأنها تتنفس ، وأنها أجمل امرأة على الأرض ، وأنها الوحيدة الجديرة بالحب ، وأنه يسأل الله أن يلهمه الصبر حتى لا يجن حبا ويشتعل غراماً ويدوب هياماً .. بعدها يمد يده إلى المحفظة وينثر أمامها ذهب المعز ، ويتلص سيفه في فمه كالحواة ..

أى مصير مرعب ينتظره ..

كان ذاهباً ليصلح مع ربه ، كان ينوى أن ينتهز فرصة الأيام الكريمة في الشهر الكريم رمضان . ويبدو أن ربه لم يجد فيه خيرًا فأمر الأقدار أن تأمره بالبقاء في مكانه ..

لو أنهم قالوا له : لم يأت الإذن بعد ..

لوقيل له ذلك لمان الأمر وأمكن احتماله ، إنما قيل له ببساطة وحزم : لا تذهب .. شاهد فيلمًا ذات يوم ، وبكى وسط ظلام الصالة بكاء مريرًا ، كان هناك عاشقان قد افترقا ، وفي اللحظة التي كان مفروضًا أن يلتقيا فيها أخذت هي نفس القطار الذي هبط هو منه ، وضاعت فرصتها الأخيرة في اللقاء ، وضاعت معها أبسط وأعمق إمكانات السعادة بالنسبة لكليهما ..

واشدد البرد .. وتدنرت الجبال بالثلوج .. وفي حديقة البرد ولدت زهرة الغربية .. كان يبكي في الفيلم لأنه وضع نفسه مكان البطل ، فأحس معه بمعنى ضياع المعنى من حياة الإنسان .. قطعًا لم يكن هذا العاشق هو نفسه بعد أن فقد من يجب ، أصبح أقل ..

فقد السلام وعاد يحمل السلاح .. فقد سلام النفس وأنشأ يحارب عدوا يحقره من أعماق نفسه ، وما أقسى أن يحارب المرء عدوا يحقره ، وأقسى من ذلك أن يكون العدو هو نفسك التي بين جنبيك ..

ولقد أدركه الأسي حين واجه نفسه .. فحدثته أنه لا يستحق صفاء الوقوف أمام الكعبة ..

كانت قصته مع ربه غريبة .. دلف من الحب البشرى إلى الحب الإلهي ، وعاد يسقط في كدر الطين فأفلت منه الحب البشرى والإلهي معًا .. وأدرك أنها الوحدة .. قبل ذلك سمح له الله بزيارة بيته الحرام مرتين ، مرة ليعتمر ومرة ليحج ، والعادة في قصص الحب الكبرى أن تنتهي لحظات الود ويسقط ليل الوحدة وتبدأ ساعات الحساب وأيامه .. وتنتهي باعترافك أنك المسئول عن فقدك ما فقدت .

خرج من عمله وراح يسير ببطء مثلما يسير الإنسان في مأتم .. قبلها يوم كان في مأتم وحيد النقاش .. وشاهد في المأتم صديقًا وجلسا

يتحدثان بهمس ورهبة .. قال صديقه بيقين : هذه الدنيا إشاعة .. أين هو الآن .. ؟ صاحب هذا المأتم الذى جئنا نزوره .. نحن جميعاً شائعات .. هذه الصور التى تراها حولك ليست هى الحقيقة .. هى نوع من أنواع الخداع .. قال لصديقه : ربما كان ما تقوله حقاً ، وراح يفكر فى صديقه ويعجب أين ذهب .. ألن يراه حقاً إلا يوم القيامة ، يؤمن بالبعث ولكنه يعرف أن انشغال الإنسان بنفسه يومها ورهبة الموقف وجلاله لن تسمح له بالبحث عن صديقه ليحتضنه ويقبله ويبكى ويحدثه كيف افتقده .. وعاد صديقه يتحدث هامساً وشبه ذاهل فقال : لو نظرت بأشعة إكس إلى الجالسين فلن ترى منهم غير عظام جالسة .. ولو نظرت إليهم بأشعة جاما فلن تجد شيئاً على الإطلاق .. تأمل الوجوه وتباين الملامح واختلاف التعبير ، وتأمل النفوس تجدها أشد اختلافاً ، ليس لإنسان بصمة إنسان آخر أو نظرتة أو صوته أو نوع حزنه أو لون طباعه .. ثم يختنى هذا كله فى يوم .. تفقد صديقاً وبعدها بيوم تفقد نفسك .. تفقد نفسه حين قيل له لن تسافر .. أدرك أنه ذهب إلى الله بغير أن يخلع ثيابه القديمة الغارقة فى الخطيئة ..

وانعقد فى قلبه مأتم عظيم يمتلئ بآلاف الكراسى المذهبة التى تجلس فوقها خطاياها ، وكانت خطاياها تثرثر وتمز رأسها وتدخن مثلما يحدث فى المأتم .. وعلى باب المأتم وقفت ذاته تستقبل الذنوب ، وراحت الذنوب تتوافد من كل حذب وصوب .. حتى امتلأت الخيمة وأحس أنه ينهار فترك المأتم وخلفه وراء ظهره وسار .. لا يترك الله إنساناً بغير عقاب .. حتى الأنبياء يتعرضون للعقاب .. عوقب ذو النون عليه السلام حين « ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

لم يكذب على ظهر السفينة حتى أنشب الجنون أظافره فى موج البحر

وبدأت العاصفة . وأجريت القرعة على أسماء الركاب كعادة ذلك الزمان القديم .. من خرجت عليه القرعة ألقى بنفسه في البحر وحمل معه الشؤم الذي أغضب آلهة البحر وجعلها تنور . تقليد وثني وجد النبي الكريم نفسه خاضعاً له رغم أنه كجزء من عذابه المبدئي .. وترسو عليه القرعة ثلاث مرات ، ويقفز يونس إلى البحر .. وهو يقفز إلى الأمواج تحرك أحد حيتان البحر نحو السطح ، أطاع الحوت هاتفاً داخله بأن ثمة صيداً عظيماً في طريقه إلى الموج ..

ثم أدرك الحوت من نفس الهاتف الداخلي أنه ابتلع نيبا كريماً .. ولم يدر الحوت ماذا يفعل فبدأ يهبط أكثر وأكثر إلى قاع البحر .. كانت الدنيا ليلاً ، وكان جوف الحوت أسود بسبب انطباق جسد الحوت عليه ، وكان موج البحر قد فقد ثياب الزرقة التي يرتديها أثناء النهار وارتدى أشد الثياب سواداً .. ووسط الظلمات الثلاث بدأ يونس عودته إلى الله .. « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .. راح يكررها فأنصت الحوت .. رقد على رمال القاع وصخوره واستمع .. واستمعت صخور القاع لهذا التسبيحة المباركة .. وجاءت الحيتان والأسمك والطحالب والقواقع ورفعت الرمال رءوسها الذهبية وتماسك طين القاع وانعقد مهرجان الخليقة حول هذا الحوت المدهش الذي يسبح لله بلغة كونية ، وراحت كل المخلوقات تسبح الله معه .. وقع ليونس تحت سطح الماء ما وقع لداود حين كان يتلو كتابه ويسبح الله فتسبح معه الجبال والطير وتجتمع حوله الخليقة ..

وانتهى الحفل وأطفئت أنواره وأمر الله الحوت أن يسلم للموج ما أخذه ..

وأسلم الحوت وديعته وقذف ذا النون على الشاطئ هناك وعاد إلى البحر ..

وعوتب نوح من قبله حين ناقش الله في موضوع ابنه الذى غرق ،
وحديثه الله : «إني أعظك أن تكون من الجاهلين» .

وعوتب موسى حين سأله الله : وما تلك يمينك يا موسى ..

قال : هي عصاى ..

فأضاف العصا إلى نفسه فأراه الله أنها ليست عصاه وإنما هي آية من
آيات ربه ..

وعوتب سيد البشر حين جاءه الأعمى بينا هو منشغل بدعوة وجوه
القوم إلى الله غير راغب في أجر لنفسه . جاءه الأعمى ليصايقه في هذا
الوقت بالذات .. كل ما فعله أنه أدار وجهه قليلاً .. عوتب عتاباً عظيماً
رغم عدالة تصرفه وخلوص نيته في الدعوة إلى الله .. عوتب لأن سيد
البشر لا ينبغي أن يدير وجهه عن أحد من البشر ..

النبي الذى لم يعاتبه ربه أبداً هو إبراهيم عليه السلام .. هو الوحيد
الذى اتخذ الله خليلاً : «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» .. قال علماء اللغة
أن الخلة هي شدة المحبة .. هو النبي الوحيد الذى قال فيه الخالق : «إن
إبراهيم لحليم أواه منيب» .. وقال فيه : «سلام على إبراهيم» . وهو النبي
الذى جاء الأنبياء جميعاً من صلبه .. هو الجد الأكبر للأنبياء ، والجد
عادة أرحم الناس بنا ، أحبهم لنا ، أكثرهم حناناً علينا ..

وربما يرفض الأب أن يفهم أخطاء ابنه ، لكن الجد عادة يفهمها
ويغفرها ، ولهذا كله أمر المسلمون بالذهاب إلى الكعبة لزيارة جد
الأنبياء أولاً ونشر ذنوبهم في شمس الله وغسلها بدموع الندم لعل جد
الأنبياء يرضى فيرضى الله ..

في العام الماضي ، في نفس هذا الوقت كان يتهاى للرحيل إلى مكة ..
وهذا العام أدرك أن ظلمه لنفسه قد منعه من السفر إلى مكة وتحسس
طريقه إلى النور ليشعله فلم يصطدم بغير الهواء والظلام ..

● المؤرخ

أجمل شيء في الدنيا هو الفرجة ..

متعته المتع أن تكون مشاهدًا للعصر لا شاهدًا عليه ، ومتفرجًا عليه لا منغمسًا فيه ، إن السلامة كل السلامة تقبع في ذلك ، وأنا رجل مصرى مسالم بالفطرة ، وهذا معناه أنني مؤرخ بالفطرة ، لست عضوًا في جمعية للمؤرخين ، ولم يطلب مني أحد أن أؤرخ لشيء ، غير أن لي عينين لا تكفان عن التجول والملاحظة والتأمل ..

وقد لاحظت. هذه الأيام زيادة عدد الأيدي التي تمسك المسابح ، وفهمت أن رمضان قد جاء ، ولاحظت أن هناك عجلًا يربطه صاحب الجراج المجاور لبيتنا في حجرة بالجراج ، وقد شاهدت عجلًا قبل ذلك تربط ثم تدبج . غير أن هذا العجل طال مقامه في الجراج ، وطال مكثه بيننا ، ودهشت . سألت عامل الجراج لماذا لم يذبح العجل ؟... قال : « يا بيك هذا العجل مبروك .. كلما هم صاحب الجراج بذبحه

رأى فى المنام رؤيا تفزعهُ وتثنيه عن عزمه .

قلت فى نفسى كمؤرخ : ما أشبه الليلة بالبارحة .. هل تتكرر قصة
عزة الشيخ عبد اللطيف .. وهى قصة حكى عنها الجبرتى فى كتابه
النفيس «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» .

قال الجبرتى : إن خدَم السيدة نفيسة بالقاهرة ، وكبيرهم الشيخ
عبد اللطيف ، أظهرُوا للناس معزة صغيرة ، وألّفوا حولها قصة ،
وتلخّص القصة ، فى أن بعض المسلمين وقعوا فى أسر أحد الكفار أثناء
الحروب ، فنذروا أن يذبحوا معزة ويوزعوا لحمها صدقة لو نجّاهم الله
من الأسر ، واشتروا المعزة وجلسوا حولها ليلة كاملة يذكرون الله ويدعون
ويتوسلون .. وكانت السيدة نفيسة من بين أولياء الله الذين توسل بهم
هؤلاء المسلمون . ونام المسلمون وقد أضمرُوا ذبح المعزة ثانى يوم ،
وتحرّكت كرامات الأولياء فإذا بالكافر يرى كابوساً رهيباً أثناء الليل ،
رأى فيها يرى النائم أن معزة فى حجْم الجبل تهجم عليه وتكاد تفتسه
وهى تقول له :

إياك يا كافر ..

واستيقظ الكافر وأطلق سراح المسلمين ومعهم المعزة ثانى يوم .

ووهب الناس هذه المعزة لمسجد السيدة نفيسة ..

واستولى الشيخ عبد اللطيف ، بصفته خادم المسجد على المعزة ..
فصارت تدعى معزة الشيخ عبد اللطيف .

ونسج الشيخ عبد اللطيف ومن معه من خدَم المسجد هالة من الحمد
حول تلك المعزة ، ونسبوا إليها الكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى
منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة ، وتتكلّم بكل غريب من القول
وعجيب . ورغم أنهم يحبسونها أثناء الليل فى حجرة مغلقة ، إلا أنهم

يستيقظون في الصباح فيجدونها حيث تشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ...

وأقسم الشيخ عبد اللطيف بالطلاق ثلاثة لأنه سمع المعزة تتكلم ..
وصدقه خدم المسجد فقالوا إن كلامها حرم آذانهم ، وحدثت كرامة
أخرى فقد تكلمت السيدة نفيسة من داخل القبر وأوصت بالمعزة خيراً ..
وأخذ الشيخ عبد اللطيف ، شيخ المسجد النفيسى يبرز المعزة للناس ،
ويجلسها بجانبه أو على حجره ، ويقبل يدها أمام الناس ويتبرك بها ،
ويحكى للناس عنها ما يحكيه ، حتى صارت حديث القاهرة كلها .. وأقبل
الرجال والنساء والعيال والشيوخ على زيارة المعزة ، كل واحد يحمل
ما تيسر حمله من الهدايا والندور ، وهنا قال الشيخ عبد اللطيف إن هذه
المعزة المباركة لا تأكل إلا قلب اللوز والفسق ، وتشرب ماء الورد
والسكر المكرر ، فأتوه من ذلك بالقناطير .. وعملت الناس للمعزة قلائد
الذهب والأطواق والحلى ، وكن يهدونها إلى المعزة ، وافتنى الناس بها فتوناً
شديداً ، وشاع أمرها في بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلت ، كل
واحدة على حسب مقامها ، ما تستطيع إرساله من الندور والهدايا ،
وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدحمن عليها ، ومن لا يسمح لها مقامها
السامى بالذهاب ، كانت ترسل للشيخ أعظم الهدايا ، ملتزمة بزيارة
المعزة لها .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى صار الناس يحلفون بحياة
المعزة ..

ووصل هذا كله إلى سمع عبد الرحمن كنتخدا ، كبير الأمراء المصريين
في ذلك الوقت ، فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر
ومعه معزته المباركة ليغترف من بركاتها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ
بغلته ، ووضع المعزة في حجره وحوله الطبول والزمور والبيارق والمشايخ ،
ومعه كثير من الناس ، ودخل بطبولة ومشايخه ومعزته بيت الأمير عبد

الرحمن كتخدًا ، وصعد بالمعزة إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجهاء ، فلمس الأمير المعزة متبركًا بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحرم ليتبركن بها ، وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طبائخيه ، قبل حضور الشيخ ، أن يذبح المعزة ويطبخها ويقدمها لهم ، ويضع أكبر قطعة منها للشيخ عبد اللطيف ..

وتم ذلك .. دخلت المعزة إلى الحرم ومن هناك إلى المطبخ ومنه إلى الحلال .. وقدم طعام الإفطار ، وراح الشيخ عبد اللطيف يأكل من لحمها وهو لا يدري ، وكلما تحول لصنف آخر من الأطياب ، حدثه الأمير كتخدًا قائلاً :

« كل يا شيخ عبد اللطيف من هذه العززة السمينة . »

فيأكل منها ويقول : والله إنها طعام طيب ومستو ونفيس .

بينما جلس الأمير وجلساؤه يتغامزون عليه ، فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ معزته ، فقال له الأمير :

« لقد أكلتها يا شيخ عبد اللطيف . »

ووبخه الأمير وبكته وطرده ، بعد أن أمر بأن يوضع جلد المعزة على عمامته ، وأن يذهب كما جاء في الزفة التي جاء بها ، وبين يديه الطبول والاشاير .. ووكل من أوصله إلى محله على تلك الصورة ..

وكتب أخذ الشعراء ، وهو الشيخ عبد الله الادكاوي في قصة العززة شعراً ردثًا يقول فيه :

ببت رسول الله طيبة الشنا

نفيسة لذ تظفر بما شئت من عز

ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن
يضل الوري في حبها منه بالعنز
فعالجها من نور الله قلبه
بذبح وأضحى التيس من أجلها مخزى

لست أعرف ما هي العلاقة بين هذه القصة وبين الصوم .. هل
اخترتها لأنها حدثت في شهر من شهور رمضان القديمة ، أم اخترتها
دهشة ، لأنه لم يكن في مصر كلها أيام الجبرتي غير رجل واحد يعقل
وملايين ينساقون .. أم اخترتها لأنني أحب لحم الماعز وأقدره أكثر من
غيره من اللحوم أسوة بصديق محمود ..
لست أعرف ...

الفهرس

٥	إهداء
٧	الصوفى
١٢	الممثل
٢٠	الزاهد
٢٧	النشال
٣١	المدير العام
٣٦	عامل التراحيل
٤٢	الصحفى
٤٨	الراقصة
٥٤	الحاج والشيخ
٦٠	المسحراتى
٦٦	الجندى
٧١	المجذوب الراقص
٧٨	الزوج الصائم
٨٤	الزوجة الصائمة
٩١	المدرس
٩٧	الطفل
١٠٢	الأثرى

١٠٨	العاشق
١١٤	الفدائي
١٢٠	الباحث
١٢٥	الأعزب
١٣٠	العالم الجهد
١٣٦	الكساري
١٤٣	سائق التاكسي
١٤٩	السجين
١٥٦	الرقيب
١٦٢	التكنولوجي
١٦٧	المكتتب
١٧٤	المنذب
١٨٠	المؤرخ

رقم الإيداع : ٨٨/٣٠٥٠
التراقيم الدولى : ٢ - ٢١٢ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القائمة: ١٦ شارع بنو الحسن، هاتف: ٧٥١٢١٤، بورتو، شروق القاهرة - تليفون: SHROK UN 83001
بيروت، ص.ب. ٨٠٦٤٠، هاتف: ٣١٥٨٥٩، بورتو، والشروق - تليفون: SHROK 20176 LE